الآيـــة رقـــم (١٢٢)

قال تعالى : ﴿ أَوَ مَنْ كان ميتًا فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشي به في النّاس كمن مثله في الظّلمات ليس بخارجٍ منها . كذلك زيّن للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ .

تضرب الآية الكريمة مثلين اثنين ، أحدهما للمؤمن وآخرهما للكافر . وإنّ مجيء لفظ المثل في حقّ الكافر وذلك في القول : ﴿ كمن مثله في الظّلمات ﴾ يجعل في الإمكان تقدير لفظ مثل المحذوف وذلك في حقّ المؤمن . وبناءً على ذلك يصحّ أن يكون التّقدير ــ والله تعالى أعلم ــ أو مثل من كان ميتًا ... وكأنّ الآية الكريمة بشأن المثل المتعلّق بالمؤمن الّذي هداه الله تعالى إلى الإيمان وشرح صدره للإسلام تنزّله قبل مرحلة الإيمان منزلة الميّت ساكن القبر . وإنّ هذا الكافر الّذي هو بمنزلة الميّت ساكن القبر كان في أعماق ظلمات المكان . وفي الإمكان تصوّر ملابسات قبر يتّسم بالضّيق وبالانقطاع عن الحياة في العالم الخارجيّ وبالظّلمات . إنّ الكافر الّذي يدبّ على الأرض ويفرح ويمرح بسبب خواء القلب من الإيمان وانقطاع الأسباب بوحي الله تعالى ونوره بمثابة الميّت ساكن القبر ، لأنّه لم يحقّق الهدف الّذي خلقه الله تعالى من أجله وهو إفراده جلّ وعلا بالعبادة ، ومن ثمّ فهو في الحقيقة تلفّه كافّة الظّلمات المعنويّة . وشاء الله تعالى لهذا الميّت معنويًّا أن يحييه جلّ وعلا بعد موته وأن يبعثه من قبره . وكيف تمّت الحياة الحقيقيّة بعد الموت المعنويّ وكيف تمّ الإخراج من القبر المعنويّ ؟ تمّت الحياة الحقيقيّة باعتناق دين الإسلام الّذي بعث الله تعالى به محمّد بن عبد الله ﷺ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين .

ولمّا كان الّذي يخرج من مثل هذا القبر الموحش ينبغي أن يمشي في النّاس دليلاً عمليًّا على الحياة بعد الموت الّذي عرفنا أنّه موتٌ معنويّ فذلك معناه أنّه بحاجةٍ إلى النّور الّذي يبدّد به مختلف الظّلمات ، ويمشي به في النّاس على الصّراط المستقيم .

إنّ الآية الكريمة نصّت على النّور الّذى جعله الله تعالى لذلك الّذى أحياه الله تعالى بالإسلام بعد موت الشّرك والكفر . أمّا هذا النّور فإنّه نورٌ معنويّ يهدى إلى الطّريقة الّتى هي أقوم ، ألا وهو القرآن الكريم . وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورًا نهدى به من نشاء من عبادنا . وإنّك لتهدى إلى صراطٍ مستقيم. صراط الله الّذى له ما فى السّماوات وما فى الأرض . ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ وقال تعالى[2] : ﴿ إنّ هذا القرآن يهدى للّتى هي أقوم ويبشّر المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات أنّ لهم أجرًا كبيرا ﴾ وقال تعالى[3] ﴿ يا أيّها النّاس قد جاءكم برهانٌ من ربّكم وأنزلنا إليكم نورًا مبينا ﴾ .

إنّ الآية الكريمة فى أسلوب الاستفهام تنكر أن يسوّى فى المَثَل بين المؤمن الّذى تلك نعوته ، وبين ذلك الكافر ، الميّت معنويًّا بسبب كفره ، المتخبّط فى مشيه على غير اهتداء بسبب ظلمات الكفر الّتى يتقلّب فيها ، وظلمات عمى البصيرة والشّكوك والرّيب الّتى تلفّه وتحيط به . بل إنّ لفظة الظّلمات فى القول : ﴿ كمن مثله فى الظّلمات ﴾ ولفظة ميّت فى القول : ﴿ أو من كان ميتًا ﴾ تستطيع كلٌّ منهما أن توحي فى حقّ الكافر الميّت معنويًّا بظلمات القبر .

وإنّ هذا الكافر الميّت معنويًّا لا يستطيع أن يخرج من تلك الظّلمات ولو اجتهد فى محاولة الخروج وبذل منتهى طاقته . إنّ القول : ﴿ ليس بخارجٍ منها ﴾ يوحى فيه اسم الفاعل : ﴿ خارج ﴾ بالاجتهاد فى اكتساب صفة الخروج ولكنّه اجتهادٌ منفيّ بليس . وقد أكّد حرف الجرّ الباء ذلك النّفي فثبت بقاء الكافر ميتًا فى الظّلمات . وإنّما تكون حياة الكافر الميّت أدبيًّا باعتناق دين الإسلام ، وإنّما يكون الخروج من الظّلمات بالاهتداء بنور تعاليم القرآن الكريم الّذى تبيّنه سنّة المصطفى ﷺ .

---

(١) سورة الشّورى ٥٢ ، ٥٣ .
(٢) سورة الإسراء ٩ .
(٣) سورة النّساء ١٧٤ .

وشاء الله تعالى أن يزيّن لكلّ أمّةٍ عملها . وكما زيّن الله تعالى لكفّار مكّة سوء عملهم ومن ذلك مجادلتهم المؤمنين فى الميتة بإيحاءٍ من الشّيطان الرّجيم شاء الله تعالى أن يزيّن للكافرين فى كلّ زمانٍ ومكانٍ عملهم وسيجازون على كلّ ذلك : ﴿ كذلك زيّن للكافرين ما كانوا يعملون ﴾

وكما زيّن تعالى للكافرين أعمالهم وجعل فى قرية مكّة أكابر مجرميها جعل ذلك فى كلّ قرية من قرى النّبيّين السّابقين فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٢٣)

قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا فى كلّ قريةٍ أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلاّ بأنفسهم وما يشعرون ﴾ .

كما جعل الله تعالى فى قرية مكّة أكابر مجرميها جعل فى كلّ قريةٍ بعث فيها نبيّاً وإليها رسولاً أكابر مجرميها وعتاة طغاتها ليمكروا فيها ويكيدوا لنبيّ الله تعالى وللمؤمنين بدلاً من الإسلام وعمل الصّالحات . وبما أنّ المكر السّيّئ لا يحيق إلا بأهله وكان الكافرون هم الخاسرين لأنّ وبال المكر مرتدٌّ عليهم ولكنّهم لا يشعرون لتبلّد إحساسهم فقد بيّنت الآية الكريمة هذه المعانى . ولمّا كان الشّعور مشتقًّا من الأصل اللّغويّ المشتقّ منه الشّعار ، وهو عبارة عن الثّوب الّذى يلامس الشّعر لاتّصاله بالجسد مباشرة فإنّ فى نفي الشّعور عن القوم مطلقًا تأكيدًا لتبلّد شعور القوم . إنّهم إذا كانوا فى مجال المحسوسات لا يشعرون بالشّعار الّذى يلامس أجسادهم فكيف يشعرون فى المعنويات بما هو أبعد فى المنال ، وأدقّ فى الإدراك ، وألطف فى الأخذ .

ومن البيّن سيطرة روح التّثبيت لفؤاد المصطفى ﷺ وأفئدة المؤمنين على آيات القسم . وإنّ الآية الكريمة التّالية الّتى تبيّن مظهرًا من مظاهر طغيان القوم تؤكّد تثبيت الفؤاد فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٢٤)

قال تعالى : ﴿ وإذا جاءتهم آيةٌ قالوا لن نؤمن حتّى نؤتى مثل ما أوتي رُسُلُ الله. الله أعلم حيث يجعل رسالته . سيصيب الّذين أجرموا صَغارٌ عند الله وعذابٌ شديدٌ بما كانوا يمكرون ﴾ .

إنّ كفّار مكّة إذا جاءتهم ووصلتهم فعلاً آيةٌ من آيات الله تعالى الكُثر فى القرآن الكريم الّتى تؤكّد معجزة القرآن الكريم وتؤيّد رسالةالمصطفى ﷺ قالوا ــ وهم الّذين يرى كبراؤهم وأثرياؤهم أنّهم عظماء قرية مكّة المكرّمة وبالتّالى هم أولى بالاصطفاء بالرّسالة وبالوحي حسب زعمهم ــ لن نؤمن بهذا الكتاب ولن نصدّق لمحمّد أنّه رسول ربّ العالمين حتّى نؤتى نحن العظماء والوجهاء من الآيات السّماويّة مثل ما أوتي موسى وعيسى وسائر النّبيّين ، كالعصا واليد فى حقّ موسى عليه السّلام ، وكإبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى فى حقّ عيسى عليه السّلام . وكأنّ هؤلاء الكافرين الجهولين يريدون أن يكونوا جميعًا نبيّين لأنّهم أولى بالنّبوّة فهم ــ مثلاً ــ أغنياء ومحمّد ﷺ فقير . وكأنّ هؤلاء المصرّين على أن يؤتوا مثل ما أوتي رسل الله تعالى السّابقون يريدون أن يرتفعوا فى المجد إلى المستوى الّذى ينافسون معه بنى هاشم الّذين اصطفى الله تعالى منهم محمّد بن عبد الله ﷺ بالنّبوّة. والمعروف أنّ السّادة والكبراء من الكافرين كانوا يعتبرون أنفسهم فى مجال الشّرف منافسين لبنى هاشم ومساوين لهم ، وكأنّهم جميعًا أفراس حلبة سباق لولا النّبوّة الّتى حسدوا بنى هاشم عليها ، ومن ثمّ هم يشترطون الحصول على النّبوّة بل على الرّسالة ، وعند ذلك فقط هم يقرّون لمحمد ﷺ بالنّبوّة ويعترفون له بالرّسالة .

روى الإمام أحمد أنّ رسول الله ﷺ قال : إنّ الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل . واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة . واصطفى من بنى كنانة قريشًا .

الآيـــة رقـــم (١٢٤)

قال تعالى : ﴿ وإذا جاءتهم آيةٌ قالوا لن نؤمن حتّى نؤتى مثل ما أوتي رُسُلُ الله. الله أعلم حيث يجعل رسالته . سيصيب الّذين أجرموا صَغارٌ عند الله وعذابٌ شديدٌ بما كانوا يمكرون ﴾ .

إنّ كفّار مكّة إذا جاءتهم ووصلتهم فعلاً آيةٌ من آيات الله تعالى الكُثر فى القرآن الكريم الّتى تؤكّد معجزة القرآن الكريم وتؤيّد رسالةالمصطفى ﷺ قالوا ــ وهم الّذين يرى كبراؤهم وأثرياؤهم أنّهم عظماء قرية مكّة المكرّمة وبالتّالى هم أولى بالاصطفاء بالرّسالة وبالوحي حسب زعمهم ــ لن نؤمن بهذا الكتاب ولن نصدّق لمحمّد أنّه رسول ربّ العالمين حتّى نؤتى نحن العظماء والوجهاء من الآيات السّماويّة مثل ما أوتي موسى وعيسى وسائر النّبيّين ، كالعصا واليد فى حقّ موسى عليه السّلام ، وكإبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى فى حقّ عيسى عليه السّلام . وكأنّ هؤلاء الكافرين الجهولين يريدون أن يكونوا جميعًا نبيّين لأنّهم أولى بالنّبوّة فهم ــ مثلاً ــ أغنياء ومحمّد ﷺ فقير . وكأنّ هؤلاء المصرّين على أن يؤتوا مثل ما أوتي رسل الله تعالى السّابقون يريدون أن يرتفعوا فى المجد إلى المستوى الّذى ينافسون معه بنى هاشم الّذين اصطفى الله تعالى منهم محمّد بن عبد الله ﷺ بالنّبوّة. والمعروف أنّ السّادة والكبراء من الكافرين كانوا يعتبرون أنفسهم فى مجال الشّرف منافسين لبنى هاشم ومساوين لهم ، وكأنّهم جميعًا أفراس حلبة سباق لولا النّبوّة الّتى حسدوا بنى هاشم عليها ، ومن ثمّ هم يشترطون الحصول على النّبوّة بل على الرّسالة ، وعند ذلك فقط هم يقرّون لمحمد ﷺ بالنّبوّة ويعترفون له بالرّسالة .

روى الإمام أحمد أنّ رسول الله ﷺ قال : إنّ الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل . واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة . واصطفى من بنى كنانة قريشًا .

يقلّوا فى المستوى عن خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين صلوات الله وسلامه عليه . إنّ الآية الكريمة التّالية تبيّن بصريح العبارة أنّ الإيمان والكفر إنّما يتمّان بإرادة الله تعالى وحده لا شريك له فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٢٥)

قال تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيّقًا حَرَجًا كأنّما يصّعّد فى السّماء . كذلك يجعل الله الرّجس على الّذين لا يؤمنون ﴾ .

إرادة الله تعالى هداية من يشاء نستطيع أن ننظر إليها فى ضوء مثل قوله تعالى[١]: ﴿ والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا . وإنّ الله لمع المحسنين ﴾ وقوله تعالى[٢] : ﴿ والّذين اهتدوا زادهم هدًى وآتاهم تقواهم ﴾ وإرادة الله تعالى ضلال من يشاء نستطيع أن ننظر إليها كذلك فى ضوء مثل قوله تعالى[٣] : ﴿ وإذا ما أنزلت سورةٌ نظر بعضهم إلى بعضٍ هل يراكم مِنْ أَحَدٍ ثمّ انصرفوا . صَرَف الله قلوبهم بأنّهم قومٌ لا يفقهون ﴾ وقوله تعالى[٤] : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإنّ له معيشةً ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال ربّ لِمَ حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرًا . قال كذلك أتتك آياتُنا فنسيتَها وكذلك اليوم تُنْسَى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربّه . ولعذاب الآخرة أشدُّ وأبْقَى ﴾ .

إنّ الّذين لديهم النّيّة الصّادقة والجهد الخالص من أجل البحث عن الحقيقة والاهتداء إلى الصّراط المستقيم يهديهم الله تعالى سبله ويزيدهم هدًى من فضله بأن يشرح صدرهم للإسلام إن كانوا غير مسلمين أو يزيدهم هدًى إن كانوا مهتدين .

---

(١) سورة العنكبوت ٦٩ .
(٢) سورة محمّد ١٧ .
(٣) سورة التّوبة ١٢٧ .
(٤) سورة طه ١٢٤ - ١٢٧ .

وإنّ الّذين ليس لديهم تلك النّيّة الصّادقة ولا الجهد الخالص ، إنّما لديهم التّعنّت الظّالم والفخر الكاذب والادّعاء السّاقط والمحادّة لله تعالى ولرسوله ﷺ ، يزيدهم الله تعالى إلى عمى بصيرتهم عمى .

وما معنى شرح الصّدر ؟ أصل الشّرح بسط اللّحم ونحوه . يقال : شرحت اللّحم وشرّحته . ومنه شرح الصّدر أي بسطه بنورٍ إلهيّ وسكينةٍ من جهة الله وروحٍ منه[1] إنّ العبد الّذى يريد الله سبحانه وتعالى أن يهديه يشرح صدره للإسلام. والمعروف أنّ الصّدر أوسع من القلب مثلاً أو الفؤاد . والمعروف أنّ السّعة الّتى تفيدها جملة ﴿ يشرح ﴾ معنويّة بأن تجد حلاوة الإيمان قبولاً لها فى صدر الإنسان فتبتهج النّفس ، وينشرح الصّدر ، ويطمئنّ القلب ، ويسعد الفؤاد ، وتقرّ العين . إنّ هذه الملابسات المبهجة توحى بأنّها بحاجةٍ إلى فسحةٍ فى المكان كي ترتع وتلعب ، تفرح وتمرح . والمعروف كذلك أنّ الإسلام يفيد من ناحيةٍ إعلان قبول دين الإسلام والدّخول فيه والنّطق بالشّهادتين ، ويفيد من ناحيةٍ أخرى أرفع درجات الإيمان وذلك بالاستسلام لله تعالى بالخضوع والانقياد له بالطّاعة والخلوص من الشّرك .

والحقيقة أنّ لو نظرنا من الوجهة المعنويّة ، بعد نظرنا من الوجهة الحسّيّة ، إلى هذا القول : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ نستطيع أن نفهم أنّ الصّدر حينما يكون منبسطًا ، والرّئة حينما تكون واسعة ، والجهاز التّنفسى حينما يكون سليمًا ينعكس كلّ ذلك على صاحبه إشراقًا فى المحيّا ، وابتهاجًا فى النّفس ، وتدفّقًا فى النّشاط ، وامتلاءً بالحيويّة . إنّ من يشرح الله تعالى صدره للإسلام يتّصف بهذه النّعوت المعنويّة والحسّيّة معًا .

أمّا الّذى يريد الله تعالى أن يضلّه بسبب ضيق عَطَنِه وانصراف قلبه عن نور الإيمان فإنّ الله تعالى يزيده عمًى إلى عماه وانصراف قلبٍ إلى انصرافه ورجسًا إلى

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « شرح » ٢٥٨ .

رجسه بحيث يبدو ذلك الذى جعل الله تعالى معيشته ضنكًا فى هيئة المصدور الميئوس من شفائه بسبب انقباض الرّئة ذاتها ، وامتلائها بالعوالق والعوائق ، وعدم قدرتها على القيام بوظيفتها من امتصاص الأكسجين فى أثناء الشّهيق ، وطرد ثانى أكسيد الكربون فى أثناء الزّفير . وبالإضافة إلى اصطلاح العلل الذّاتيّة النّابعة من المصدور ثمّة عللٌ خارجيّةٌ إضافيّة تزيد الطّين بِلّةً وذلك بأن يرغم المصدور الّذى لا يكاد يستطيع المشي فى الأرض المستوية على أن يصعد فى السّماء ، إلى أعلى ، ممّا ينجم عنه ارتفاع الضّغط من ناحية ، وقلّة الأكسجين من ناحيةٍ أخرى . فلنضع إلى ما تقول الآية الكريمة : ﴿ ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيّقًا حَرَجًا كأنّما يصّعّد فى السّماء ﴾ .

إنّنا لازلنا بصدد الصّدر الّذى يتّسع للقلب والفؤاد وربّما للنّفس والعقل . وقبل ذلك وبعده للرّئة . وحينما ننظر من الوجهة الحسّيّة إلى الجزئيّة الكريمة نستطيع أن نتبيّن من القول : ﴿ ضيّقًا ﴾ مرض الرّئة الّذى ينجم عنه ضيق الشّعب والحويصلات الهوائيّة . كما نستطيع أن نفهم من القول : ﴿ حرجًا ﴾ امتلاء المكان بالعوالق والعوائق ويحضرنا بهذه المناسبة المثل : « لا بدّ للمصدور أن ينفث » بمعنى أنّ مريض الصّدر لا يرتاح إن لم يطرد ما يملأ صدره من عوائق وعوالق . ونستطيع أن نتبيّن امتلاء المكان بكلّ ما هو أذًى وقذًى حينما نتبيّن أنّ الحرج ـ والحراج كذلك ـ هو فى الأساس مجتمع الشّجر[1] ومجتمع الشّيء[2] والحرج جمع حرجة[3] والحرجة هي الشّجرة الملتفّ بها الأشجار لا يدخل بينها وبينها شيءٌ لشدّة التفافها بها[4] وقد سأل عمر بن الخطّاب رضي الله عنه رجلاً من الأعراب من أهل البادية من مدلج عن الحرجة فقال : هي الشّجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعيةٌ

---

(١) معجم مقاييس اللّغة : « حرج » ٢/٥٠ .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « حرج » ١١٢ .
(٣) معجم مقاييس اللّغة : « حرج » ٢/٥٠ وتفسير الطّبريّ ٨/٢١ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٨/٢١ .

ولا وحشيّةٌ ولا شيء . فقال عمر رضي الله عنه : كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيءٌ من الخير(١) .

وإنّ من ألطف ما يستذكر بشأن لفظة الحرج والحراج المعانى الرّاسخة في الذّهن والنّفس من فوضى واضطراب وعدم نظام حينما نستعمل لفظة الحراج فى لغتنا الدّارجة .

وبالإضافة إلى امتلاء رئتي المصدور بضروب الأذى والقذى وبذلك يصطلح على المصدور ضيق الرّئتين وانسدادهما يُرْغَمُ المصدور الذى يكاد يلفظ أنفاسه على أن يصعد فى السّماء ، لأنّ يصّعّد بمعنى يتصعّد(٢) الصّاد والعين والدّال أصلٌ صحيحٌ يدلّ على ارتفاعٍ ومشقّة . من ذلك الصَّعود : العقبة الكئود ، والمشقّة من الأمر . قال الله تعالى : سأرهقه صَعودا . ويقال : تصعّدنى الأمر إذا شقّ عليك . ومن الباب الصُّعَداء ، وهو تنفّس بتوجّع ، فهو نَفَسٌ يعلو(٣) والصَّعود : الطّريق صاعدًا مؤنّثة . والصَّعود : المشقّة على المَثَل . وصَعِد المكان وفيه صعودًا وأصعد وصعّد : ارتقى مُشْرِفًا . قال الله تعالى : كأنّما يصّعّد فى السّماء . يقال : صَعِدَ واصّعّد واصّاعد بمعنى واحد . وتصعّدنى الأمر وتصاعدنى : شقّ عليّ . والصُّعداء، بالضّمّ والمدّ : تنفّس ممدود . وتصعّد النّفس : صعب مخرجه ، وهو الصُّعَداء(٤) .

وإذا كانت جملة يَصْعَد تعنى الصّعود بمعنى الذّهاب فى المكان العالى(٥) فإنّ الزّيادة فى مبنى جملة يصّعّد تعنى الزّيادة فى المعنى بمعنى الزّيادة فى المشقّة ، وينبغى أن يكون لإبدال التّاء صادًا وإدغامها فى الصّاد دورٌ فى زيادة المعنى فإنّ الأصل يتصعّد كما عرفنا(٦) .

---

(١) تفسير ابن كثير ١٧٥/٢ وتفسير الطّبريّ ٢٢/٨ .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « صعد » ٢٨١ .
(٣) انظر معجم مقاييس اللّغة : « صعد » ٣٨٧/٣ و٣٨٨ .
(٤) انظر لسان العرب : « صعد » .
(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « صعد » ٢٨٠ .
(٦) انظر الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٢٢٨/٤ .

ومع أنّ لفظة السّماء تعنى فى عرف العرب الّذين نزل القرآن الكريم بلسانهم كلّ ما علاهم ابتداءً بسقف الخباء أو الدّار ، مرورًا بالسّحاب وانتهاءً بالسّماء ، ومع أنّهم آنذاك يفهمون من الصّعود فى السّماء معنًى محدودًا فإنّ الآية الكريمة تريد ما اتّسع له لفظة السّماء فى العصر الحديث الّذى تطوّر فيه العلم واخترق الإنسان فيه بإذن الله تعالى الأجواء وطاف فى الفضاء ورأى فى الآفاق آيات الله تعالى كما رآها فى نفسه مصداقًا لقول الحقّ جلّ وعلا[1] : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ . أو لم يكف بربّك أنّه على كلّ شيءٍ شهيد . ألا إنّهم فى مريةٍ من لقاء ربّهم . ألا إنّه بكلِ شيءٍ محيط ﴾ لقد تبيّن بالعلم أنّ الإنسان بالارتفاع فى السّماء أي فى الفضاء يرتفع ضغطه داخليًّا ويقلّ الأكسجين خارجيًّا.

لنتخيّل شخصًا مصدورًا يتجشم صعود قمّة إفرست أو يتجشم اختراق الفضاء دون الاستعداد الصّحّيّ الذّاتيّ ودون السّلطان الّذى يستطيع أن ينفذ به فى أقطار السّماء . ما مصير مثل هذا الشّخص منذ الجولة الأولى . الموت بإذن الله تعالى .

لنتحوّل إلى الجانب الآخر المعنويّ لقول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيّقًا حَرَجًا كأنّما يصّعّد فى السّماء ﴾ . إنّ المعرض عن آيات الله تعالى عن عمدٍ وسبق إصرار يزيده الله بسماع المزيد من آيات الله تعالى البيّنات إعراضًا بجسده ، وانصرافًا بقلبه ، وانقباضًا بصدره ، حتّى لكأنّه بسبب سماع الدّعوة إلى دين الإسلام ذلك المصدور الّذى عرفنا فى المحسوسات طبيعته وملابساته. وفى مقابل حياة المؤمن بالإيمان ومشيه فى النّاس بنور القرآن يكون موت الكافر برفض الإيمان وحياته الضّنك[2] فى الظّلمات الّتى لا يخرج منها حتّى يتحوّل بإرادة الله تعالى من الموت المعنويّ إلى الموت الحسّيّ ، وهناك تضاف ظلمات القبر ووحشته والعياذ بالله .

وتختم الآية الكريمة بالقول : ﴿ كذلك يجعل الله الرّجس على الّذين لا يؤمنون ﴾

---

(١) سورة فصّلت ٥٣ ، ٥٤ . (٢) الضّنك : الضّيق من كلّ شيء للمذكّر والمؤنّث .

إنّ الرّجس بمعنى الكفر[١] والشّكّ والرّيب[٢] والنّتن والعذاب[٣] إنّ الله سبحانه وتعالى كما جعل صدر الكافر ضيّقًا حرجًا يجعل الرّجس والعذاب والنّتن والشّكوك والرّيب على الكافرين . ولمّا كان الدّين المتقبّل عند الله تعالى هو الإسلام فقد بيّنت الآية الكريمة التّالية أهمّ نعوت هذا الدّين وعيّنت النّور الّذى يهتدى به فى ذلك الصّراط المستقيم فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٢٦)

قال تعالى: ﴿ وهذا صراط ربّك مستقيما . قد فصّلنا الآيات لقومٍ يذّكّرون ﴾.

إنّ الخطاب وإن كان متّجهًا أساسًا إلى المصطفى ﷺ وإلى كلّ فردٍ من أفراد الأمّة الإسلاميّة بعد ذلك فإنّه يتّجه كذلك إلى الّذى شرح الله تعالى صدره لاعتناق دين الإسلام ، وها هوذا يقال له : هذا هو صراط ربّك الّذى ربّاك بنعمه وآلائه وأسبغ عليك نعمه الظّاهرة والباطنة ، وأعظمها نعمة الإسلام الّذى يشار إليه باسم الإشارة الدّالّ على القرب : ﴿ هذا ﴾ وهذا هو الطّريق المستقيم الّذى وفّقك ربّك لتسير فيه حتّى تلقى الله تعالى وتدخل بإذنه وفضله جنّات النّعيم . ولمّا كان الطّريق المستقيم ذاته لا يستغنى السّائر فيه عن العلامات والصُّوَى والنّور الّذى يستنير به حينما يكون فى الطّريق الحسّيّ منعطفاتٌ وظلمات ، وحينما يكون فى الطّريق المعنويّ معضلاتٌ ومستجدّات ، فقد بيّنت الآية الكريمة أنّ آيات هذا الكتاب العزيز الّتى فصّلها ربّ العزّة والجلال هي الّتى يتذكّر بها المتذكّرون ، ويتّعظ بها المتّعظون، ويهتدى بها المهتدون . وهكذا يتجلّى فضل الله تعالى على عباده فى هدايتهم إلى الطّريق المستقيم حتّى يلقوا ربّهم جلّ وعلا ويدخلوا الجنّة بفضله جلّ وعلا على نحو ما تحدّثت الآية الأخيرة فى القسم فإلى.

---

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ٤٧١ الطبعة الثّالثة ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٠٣/٢ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « رجس » ١٨٨ .

الآيـــة رقـــم (١٢٧)

قال تعالى : ﴿ لهم دار السّلام عند ربهم وهو وليّهم بما كانوا يعملون ﴾ .

إنّ السّلام من أسماء الله تعالى[١] وإنّ دار السّلام هي الجنّة دار السّلامة من الآفات والأمن والطّمأنينة والسّعادة الأبديّة . إنّ الّذين هداهم الله تعالى الصّراط المستقيم وساروا فيه بنورٍ من ربّهم جلّ وعلا لهم يوم القيامة الجنّة الّتى يعبّر عنها بأنّها دار السّلام بسبب سلامتها من كلّ المنغّصات فى الحياة الأولى . إنّ الله تعالى هو وليّ المؤمنين فى ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود بما كانوا يعملون فى الحياة الأولى من أعمالٍ صالحة تفضّل الله تعالى بقبولها . ونستطيع أن نستذكر فى هذه المناسبة قوله تعالى[٢] : ﴿ من عمل صالحًا من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينّه حياةً طيّبةً ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ وقوله تعالى[٣] : ﴿ إلاّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحًا فأولئك يبدّل الله سيّئاتهم حسنات . وكان الله غفورًا رحيما ﴾ .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٨/٢٥ . (٢) سورة النّحل ٩٧ . (٣) سورة الفرقان ٧٠ .

[١٤]

« النّار مثوى كافرى الجنّ والإنس مكذّبى الرّسل وتحذيرٌ للظّالمين »

الآيــات (١٢٨ ـ ١٣٥)

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا
يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم
مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ
أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ
رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا
بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ
رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ
يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا
وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ
أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾
وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا
يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ
أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا
تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۙ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ
ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ
﴿١٣٥﴾

بيّن السّياق من ذى قبل أنّ الله سبحانه وتعالى سيجعل الرّجس ، بمعنى العذاب ، على الكافرين أولياء الشّياطين ، وقرّر أنّ شياطين الإنس والجنّ يوحى بعضهم إلى بعضٍ زخرف القول غرورا . إنّ آيات القسم تدور حول هذه المعانى . إنّ ربّ العزّة سوف يجمع لفصل الحساب شياطين الجنّ والإنس ويقول لشياطين الجنّ إنّكم قد استكثرتم من إغواء شياطين الإنس وقال أصدقاؤهم من الإنس يا ربّنا لقد استمتع بعضنا ببعض فذلّل شياطين الجنّ سبل الغَواية وزيّنوا المنكرات لشياطين الإنس الّذين أطاعوهم واستعاذوا بهم فقال الجنّ : لقد سدنا الجنّ والإنس معًا . وظلّ الفريقان فى ضلالهما حتّى بلغا الأجل الّذى أجّله الله تعالى لهما فدخلا النّار وخلدا فيها إلاّ ما شاء الحكيم العليم . وهكذا يكون بعض الظّالمين أولياء بعضٍ وأعداء بعض بأن يسلّط الله تعالى بعضهم على بعضٍ بما كانوا يكسبون . وحينما يُسْأل شياطين الجنّ والإنس عن موقفهم من رسل الله تعالى إليهم يشهدون على أنفسهم بأنّهم قد غرّتهم الحياة الدّنيا وبأنّهم كانوا كافرين . وهكذا ينال الظّالمون جزاءهم العادل فى الآخرة وفى الأولى كذلك بسبب تكذيبهم رسل الله تعالى وكفرهم ، وكما يكونون فى دركات النّار يكون المؤمنون فى درجات الجنّة . إنّ الله سبحانه وتعالى هو الغنيّ ذو الرّحمة . ومن مظاهر قدرته وغِناه إنشاء المعاصرين له ﷺ من ذرّيّة قومٍ آخرين مضوا كأمس الدّابر . ومن مظاهر رحمته جلّ وعلا إرسال خاتم النّبيّين وعدم استئصال الكافرين من قومه ، وعدم استئصال أمّته بعدوّ خارجيّ أو بكوارث طبيعيّة. إنّ الظّالمين لا يفوتون الله تعالى ، وإنّ سوء الدّار بمعنى نار جهنّم من نصيبهم وذلك فى مقابل العاقبة الحسنة للدّار الأولى وهي الجنّة الّتى هي من نصيب المؤمنين . وقد جاء القول : ﴿ ربّك ﴾ أربع مرّاتٍ بقصد تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ وذلك فى الآيات ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ .

الآيـــة رقـــم (١٢٨)

قال تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم جميعًا يا معشر الجنّ قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربّنا استمتع بعضنا ببعضٍ وبلغنا أجلنا الّذى أجّلت لنا . قال النّار مثواكم خالدين فيها إلاّ ما شاء الله . إنّ ربّك حكيمٌ عليم ﴾ .

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ وتقول له : واذكر أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم فيما تقصّه عليهم وتنذرهم به يوم يحشرهم الله تعالى جميعًا ويجمع للحساب والجزاء المعبودين وعابديهم من شياطين الجنّ والإنس الّذين يوحى بعضهم إلى بعضٍ زخرف القول غرورًا . إنّ ربّ العزّة يقول فى ذلك اليوم العصيب والمشهد المهيب يا معشر الجنّ قد استكثرتم من إضلال الإنس وأسرفتم فى إغوائهم عن سواء السّبيل. وبسبب تحقّق ذلك يوم القيامة تجىء بعد ذلك جملة ﴿ قال ﴾ فى صيغة الزّمن الماضى وكأنّ القول اللاحق قد تحقّق ومن باب الأَوْلى سابقه : ﴿ وقال أولياؤهم من الإنس ﴾ .

إنّ لفظة ﴿ أولياء ﴾ فى حقّ شياطين الجنّ والإنس تذكّرنا بالآية الكريمة السّابقة الّتى تتحدّث عن ثواب المؤمنين المتّقين وذلك فى القول : ﴿ لهم دار السّلام عند ربّهم وهو وليّهم بما كانوا يعملون ﴾ كما تذكّرنا بجملة : ﴿ نولّى ﴾ فى الآية الكريمة التّالية الّتى تتحدّث عن ولاية بعض الظّالمين بعضهم الآخر وقتًا من الأوقات وذلك فى القول : ﴿ وكذلك نولّى بعض الظّالمين بعضًا بما كانوا يكسبون ﴾ .

إنّ أولياء الجنّ من شياطين الإنس يقولون يوم القيامة يا ربّنا ، يا من ربّيتنا بنعمك فبدّلنا نعمتك كفرانًا ، ودينك كفرًا وعصيانا ، لقد استمتع فى الحياة الدّنيا بعضنا ببعض . إنّ شياطين الإنس يجدون متعتهم فى إغواء شياطين الجنّ لهم ، وتزيين الغَواية لهم ، وتذليل سبل الضّلال من أجلهم . وإنّ شياطين الجنّ يجدون

متعتهم فى انقياد شياطين الإنس لهم ، وامتطائهم ظهورهم ، والاستعانة والاستعاذة بهم ، حتّى إنّ هؤلاء الشّياطين ليتيهون فخرًا قائلين : لقد سدنا الجنّ والإنس معًا!

وظلّ الفريقان يستمتع بعضهم بإغواء بعضهم الآخر طوال الحياة الّتى كتبها الله تعالى للفريقين ، وحتى الموعد الّذى حدّده الله تعالى نهايةً لهم فى الحياة الأولى ، فاستوفوا وقتهم فى الدّنيا ، وبلغوا الأجل الّذى أجّله الله تعالى لهم ، والمدّة المضروبة لحياتهم ، فاخترمتهم المنيّة ، وغادروا دار الغرور إلى دار الحقّ .

ولمّا كان ربّ العزّة قد جعل العذاب فى انتظار الّذين لا يؤمنون فإنّ النّار ستكون مثوى شياطين الجنّ والإنس ومقرّهم خالدين فيها إلاّ ما شاء الله : « عن ابن عبّاس قال : ﴿ النّار مثواكم خالدين فيها إلاّ ما شاء الله إنّ ربّك حكيمٌ عليم ﴾ قال : إنّ هذه الآية آيةٌ لا ينبغى لأحدٍ أن يحكم على الله فى خلقه ألاّ ينزلهم جنّةً ولا نارا »[1] .

وإنّ القول : ﴿ ربّك ﴾ خطابًا للمصطفى ﷺ ينبّهنا إلى كثرة ورود هذا القول فى سورتى الأنعام وهود المكّيّتين الكريمتين اللّتين جاء فى كلٍّ منهما سبع عشرة مرّةً، أي بأكثر من ايّ سورةٍ أخرى من سور القرآن الكريم .

إنّ ربّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم هو الحكيم فى قوله وفعله وقدره وحكمه وفى كلّ شيء ، وهو العليم الّذى لا تخفى عليه خافية والّذى يعلم من يستحقّ أن يدخله النّار بعدله ومن يدخله الجنّة بفضله ، لا رادّ لقضائه ولا معقّب لحكمه جلّ وعلا : ﴿ لا يُسْأل عمّا يفعل وهم يُسْألون ﴾[2] .

ومن البيّن الدّور العظيم للقول خطابًا للمصطفى ﷺ : ﴿ ربّك ﴾ فى التّسلية وتثبيت الفؤاد فى تلك الفترة المبكّرة من فجر الدّعوة الإسلاميّة بمكّة المكرّمة .

وحول ولاية بعض الظّالمين بعضًا تدور الآية الكريمة التّالية فإلى .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٨/٢٦ .

(٢) سورة الأنبياء ٢٣ .

الآيـــة رقـــم (١٢٩)

قال تعالى : ﴿ وكذلك نولّى بعض الظّالمين بعضًا بما كانوا يكسبون ﴾ .

فى ضوء مجىء لفظة : ﴿ أولياء ﴾ فى الآية الكريمة السّابقة ، ولفظة : ﴿ ولي ﴾ فى الآية الكريمة السّابقة عليها نستطيع أن نذهب إلى أن جملة نولّى فى القول : ﴿ وكذلك نولّى ﴾ ذات علاقة بالولاية بكسر الواو بمعنى النُّصرة[١] وبذلك يكون المعنى : وكما متّع الله تعالى بعض الظّالمين ببعض وكما متّع عصاة الإنس وشياطينهم بعصاة الجنّ وشياطينهم يجعل الله سبحانه وتعالى بعض الظّالمين أولياء بعضٍ على الضّلالة ونصراء بعضٍ على الباطل بسبب اشتراكهم فى كسب الآثام فى الحياة الأولى وعمل السّيّئات . وكأنّ هؤلاء الظّالمين الّذين لا مولى لهم أصبح الظّالمون من الإنس من أمثالهم أولياء لهم إضافةً إلى شياطين الجنّ . وبذلك تكون الآية الكريمة تتحدّث عن الولاية فى الحياة الدّنيا . والمعروف أنّ أصدقاء الدّنيا على الباطل أعداء فى الآخرة وقد قال تعالى[٢] : ﴿ الأخلاّء يومئذٍ بعضهم لبعضٍ عدوٌّ إلاّ المتّقين ﴾ .

ولمّا كانت جملة : ﴿ نولّى ﴾ فى الآية الكريمة يصحّ أن تكون كذلك من الولاية، بفتح الواو ، بمعنى تولّى الأمر[٣] فذلك معناه أنّ الآية الكريمة تتحدّث عن مصير الظّالمين فى الحياة الدّنيا حينما يسلّط الله تعالى على الظّالم من هو أظلم منه وأشدّ بطشًا ومن لا يرقب فيه إلاًّ ولا ذمّة ، قرابةً ولا عهدًا . وإنّما يسلّط الله تعالى الظّالمين على الظّالمين بسبب كسبهم من الذّنوب وعملهم من السّيّئات .

وإذا كان مجىء لفظتي ولي وأولياء فى الآيتين الكريمتين السّابقتين رشّح لفهم جملة: ﴿ نولّى ﴾ بأنّها من الولاية بمعنى النُّصرة فإنّ القول فى الآية الكريمة السّابقة:

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « ولى » ٥٣٣ .
(٢) سورة الزخرف ٦٧ .
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « ولى » ٥٣٣ .

﴿ قال النّار مثواكم خالدين فيها ﴾ رشّح لفهم جملة : ﴿ نولّى ﴾ بأنّها من الوَلاية بمعنى تولّى الأمر ، وذلك لأنّ التّولّي هنا بمعنى التّسلّط والعداوة ، وقد عرفنا أنّ أولياء الدّنيا على الباطل أعداء الآخرة على نحو ما جاء فى آية سورة الزّخرف السّابقة وعلى نحو ما يُفْهَم من العديد من آي الذّكر الحكيم ومنها قوله تعالى فى سورة العنكبوت[1] : ﴿ وقال إنّما اتّخذتم من دون الله أوثانًا مودّة بينكم فى الحياة الدّنيا ثمّ يوم القيامة يكفر بعضكم ببعضٍ ويلعن بعضكم بعضًا ومأواكم النّار ومالكم من ناصرين ﴾ إنّ الولاية بين الظّالمين فى الدّنيا كما تحوّلت عداوةً فى الآخرة هي تتحوّل عداوةً فى الدّنيا بإرادة الله تعالى وبذلك يسلّط الله تعالى بعض الظّالمين على بعض ويولّى بعضهم بعضًا ويتولّى أمره ويهضمه حقّه ويظلمه ويذيقه ألم الظّلم ويجرّعه مرارة كأسه الّتى سقى منها الآخرين . وهكذا تجرى الآية الكريمة مجرى المثل فى التّحذير من الظّلم بمختلف صوره وتهديد الظّالمين : ﴿ وكذلك نولّى بعض الظّالمين بعضًا بما كانوا يكسبون ﴾ والآية الكريمة التّالية تتحدّث فى محاكمة الظّالمين يوم القيامة فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٣٠)

قال تعالى : ﴿ يا معشر الجنّ والإنس ألم يأتكم رسلٌ منكم يقصّون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرّتهم الحياة الدّنيا وشهدوا على أنفسهم أنّهم كانوا كافرين ﴾ .

يوم القيامة يُنادَى معشر الجنّ والإنس على رءوس الأشهاد ويُسْألون فى أسلوب الإنكار والتّوبيخ : ألم يأتكم يا معشر الجنّ والإنس رسلٌ منكم ومن بنى جنسكم يقصّون عليكم آيات الكتاب العزيز وينذرونكم لقاء يومكم هذا ويخوّفونكم هذا

---

(١) الآية ٢٥ .

الموقف العصيب والمشهد المهيب : قال ابن عبّاس : الرّسل من بنى آدم ومن الجنّ نذر[١] والمعروف أنّ الجنّ قد أصغوا إلى المصطفى ﷺ ببطن نخلٍ ، موضعٍ بين مكّة والطّائف يصلّى بأصحابه الفجر . رواه الشّيخان[٢] وقد أشارت إلى هذه الحادثة سورة الأحقاف فى الآيات ٢٩ ـ ٣٢ وسورة الجنّ فى الآيات ١ ، ٢ ، ١٣ ، ١٩ .

ويكون جواب الجنّ والإنس جميعًا بالإيجاب . إنّهم يشهدون على أنفسهم بأنّهم فرّطوا فى جنب الله تعالى ، وفى ذلك اعترافٌ ضمنيٌّ بأنّ رسل الله تعالى قد بلّغوا الرّسالة وأدّوا الأمانة . وما الّذى صرف الجنّ والإنس عن اتّباع الرّسل والعمل ليوم الدّين ؟ إغراء الدّنيا لهم بمتعها الرّخيصة ، هذا إلى تزيين شياطين الجنّ لشياطين الإنس سبل الغَواية . إنّهم بدلاً من أن يؤمنوا ويعملوا الصّالحات كفروا وعملوا الموبقات ، وها هم أولاء يشهدون على أنفسهم أنّهم كانوا كافرين . ويلفت النّظر فى الآية الكريمة القول على لسان الكافرين : ﴿ شهدنا على أنفسنا ﴾ والقول عنهم: ﴿ وشهدوا على أنفسهم أنّهم كانوا كافرين ﴾ إنّ التّعبير يتجاوز مرحلة الاعتراف الكافية لإصدار الحكم واستحقاق العذاب إلى المرحلة الّتى يتجاوز فيها القول على لسان الكافرين مرحلة الاعتراف إلى مرحلة الجمع بين الاعتراف والشّهادة معًا ، وليس وراء هذا النّوع من الحجج حجّةٌ ولا بُرْهان .

ولمّا كان إرسال الرّسل من أجل أن تقوم الحجّة على الكافرين فإنّ الآية الكريمة التّالية بيّنت هذه الحكمة فإلى .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/١٧٧ .

(٢) انظر الجلالين فى تفسير آيات سورتي الأحقاف والجنّ فى الموضوع .

الآيـــة رقـــم (١٣١)

قال تعالى : ﴿ ذلك أن لم يكن ربّك مهلك القرى بظلمٍ وأهلها غافلون ﴾ .

إنّ الحياتين الأولى والآخرة متلازمتان فى يقين المؤمن لأنّ الأولى حياة العمل والأخرى حياة الجزاء ، وربّما كان الجزاء فى الأولى على الصّالحات وعلى السّيّئات. أمّا الجزاء على الصّالحات فيتمثّل فى الحياة الطّيّبة فى الأولى إضافةً إلى الآخرة على نحو ما بيّنت الآية الكريمة السّابعة والتّسعون من سورة النّحل ، وأمّا الجزاء على السّيّئات ففى الحياة الضّنك فى الأولى ، إضافةً إلى حشر المعرض عن ذكر الله تعالى أعمى يوم القيامة على نحو ما بيّنت الآية الكريمة الرّابعة والعشرون بعد المائة من سورة طه . إنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تأخذ بسبب من حياة الكافر الضّنك فى الأولى ، فتقرّر أنّ إرسال الله تعالى المرسلين مبشّرين ومنذرين من أجل أنّه[1] لم يكن ربّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم ، وأيّها المؤمن بالله العظيم وبالرّسول الكريم ، لم يكن ربّك مهلك القرى ومبيد أهلها بظلمٍ وأهلها غافلون عن الغاية من خلق الله تعالى لهم ومصيرهم . إنّ الظّلم منفيٌّ عن الذّات العليّة وقد قال تعالى[2] : ﴿ إنّ الله لا يظلم مثقال ذرّة . وإن تك حسنةً يضاعفها ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا ﴾ وقال تعالى[3] : ﴿ ولا يظلم ربّك أحدا ﴾ .

والحقيقة أنّ القول فى الآية الكريمة : ﴿ بظلم ﴾ كما صحّ أن يكون معناه لم يكن ربّك مهلك القرى بظلمٍ منه جلّ وعلا لأهلها حالة كونهم غافلين عن المرسلين وتعاليمهم ، صحّ أن يكون متعلّقًا بأهل القرى أنفسهم . إنّ المعنى فى هذه الحال يكون قريبًا من هذا النّحو : لم يكن ربّك مهلك القرى بظلمٍ منهم لأنفسهم حالة

---

(١) انظر الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٤/٢٣٥ .

(٢) سورة النّساء ٤٠ . (٣) سورة الكهف ٤٩ .

كونهم غافلين عن الواجبات عليهم حقًّا لله تعالى فى أعناقهم . إنّ نفي المؤاخذة على الظّلم بسبب الغفلة ينفي الظّلم ضمنًا عن الذّات العليّة فى حين يكون نفي الظّلم عن الذّات العليّة ملفوظًا به وفق الرّأي الأوّل . إنّه لا ظلم اليوم وفق كلا الرّأيين وقد قال تعالى[1] : ﴿ اليوم تُجْزَى كلُّ نفسٍ بما كسبت لا ظلم اليوم . إنّ الله سريع الحساب ﴾ .

وكما عوقب المذنبون يوم القيامة أثيب الصّالحون وإلى ذلك أشارت .

الآيـــة رقـــم (١٣٢)

قال تعالى : ﴿ ولكلٍّ درجاتٌ ممّا عملوا وما ربّك بغافلٍ عمّا يعملون ﴾ .

من ألطف ما ينبغى التّنويه به مجيء القول : ﴿ ربّك ﴾ هنا وذلك على غرار مجيئه فى الآية الكريمة السّابقة وكذلك فى اللّاحقة ، وكلّ ذلك بقصد تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ فى المقام الأوّل . إنّ لكلٍّ من المحسنين والمسيئين ، الصّالحين والطّالحين، المؤمنين والكافرين درجاتٍ ممّا عملوا وبناءً على تلك الدّرجات فى حقّ المؤمنين هم يرقون ويرتفعون . وبناءً على تلك الدّركات فى حقّ الكافرين والمنافقين هم يهبطون وينزلون . إنّ رقيّ المؤمنين فى درجات الجنّة ، وإنّ هبوط الكافرين والمنافقين فى دركات النّار . إنّ ربّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم ليس بغافلٍ عمّا يعمل القاسطون الظّالمون والمقسطون العادلون .

ولمّا كان ربّ العزّة هو الغنيّ عن عباده وكان إرسال المرسلين من مظاهر رحمته كي يثيب المحسنين بفضله ويعاقب الظّالمين بعدله فإنّ الآية الكريمة التّالية تحدّثت حول هذا المعنى فإلى .

---

(١) سورة غافر ١٧ .

الآيـــة رقـــم (١٣٣)

قال تعالى : ﴿ وربّك الغنيّ ذو الرّحمة . إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرّيّة قومٍ آخرين ﴾ .

إنّ ربّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم هو الغنيّ الكبير المتعال ، ذو الرّحمة الّتى وسعت كلّ شيءٍ والّتى سبقت غضبه جلّ وعلا . وتبيّن الآية الكريمة كلاً من الغنى والرّحمة . إنّ ثمّة قومًا آخرين سابقين بدّلوا نعمة الله تعالى كفرًا وأحلّوا قومهم دار البوار فأخذهم الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدرٍ مظهرًا من مظاهر غناه جلّ وعلا واستغنائه عن خلقه . وإنّ ربّ العزّة قد أنشأ من ذرّيّة هؤلاء وأوجد المعاصرين للمصطفى ﷺ رحمة الله تعالى المهداة ونعمته المسداة . إنّ أخذ الله تعالى الظّالمين السّابقين من مظاهر غناه ، وإنّ إرسال خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين فى ذرّيّة أولئك من مظاهر رحمته جلّ وعلا ولطفه بعباده . إنّ الله سبحانه وتعالى الّذى أذهب السّابقين وأنشأ اللاّحقين قادرٌ على إذهاب اللاّحقين وإنشاء مستخلَفين من ذراريهم دليلاً على غناه جلّ وعلا وقدرته . وإنّ الله سبحانه وتعالى القادر على إذهاب الجميع وإبادتهم لم يشأ ذلك فى حقّ أمّة محمّد بن عبد الله ﷺ دليلاً على رحمته جلّ وعلا الّتى وسعت كلّ شيء . وإنّ ربّ العزّة البرّ الرّءوف الرّحيم قد استجاب دعوة المصطفى ﷺ ألا يسلّط جلّ وعلا على أمّته ﷺ عدوًّا من غيرهم ، وألاّ يهلك أمّته بالغرق والطّوفان ، وبالسّنّة والقحط ، وبكلّ ما أهلك جلّ وعلا به الأمم السّابقة[1] على نحو ما مرّ بنا فى دراسة الآية الكريمة الخامسة والسّتّين من السّورة الكريمة . إنّ الغنى والرّحمة ، العزّة والرّأفة ، يتجلّى كلّ ذلك فى عجز الآية الكريمة الّذى يبيّن الصّدر ويوضّحه .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢/١٤٠ و١٤١ .

وإذا كان ربّ العزّة قد استجاب دعاء المصطفى ﷺ ألاّ يهلكهم أجمعين بما يسمّى بالكوارث الطّبيعيّة وبتسليط عدوّهم عليهم فإنّ شيئًا من هذا وذاك يصحّ أن يصيب بعض أجزاء الأمّة على نحو ما يفهم من الآية الكريمة التّالية .

الآيـــة رقـــم (١٣٤)

قال تعالى : ﴿ إنّ ما توعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين ﴾ .

إنّ الّذى توعدونه أيّها الظّالمون من عذاب الآخرة لآتٍ لا محالة . ويلاحظ مجىء جملة ﴿ لآت ﴾ الّتى تستعمل فى البعد مراعاةً لما استقرّ فى نفوس الكافرين من استبعاد مجىء ذلك اليوم واستحالة قدومه ، ومراعاةً لما استقرّ فى نفوس الآخرين من وجود فترةٍ زمنيّة تفصل بينهم وبين موعد قيام السّاعة . وبالإضافة إلى عذاب الكافرين الأكيد يوم القيامة يصحّ أن يسبقه بعض مظاهر العذاب فى الدّنيا فى هيئة تسليط الآخرين عليهم وإلحاق الكوارث الطبيعيّة بهم . إنّكم أيّها الكافرون الظّالمون لستم بمعجزى الله تعالى ولستم بفائتيه . وتجاه إصرار الكافرين على الإعراض يكون التّهديد فى آخر آيات القسم فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٣٥)

قال تعالى : ﴿ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إنّى عاملٌ فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدّار . إنّه لا يفلح الظّالمون ﴾ .

تأمر الآيــة الكريمــة النّبيّ ﷺ أن يقــول للكــافرين مــن قومــه علــى ســبيل التّحذير لهم والتّهديد ، اعملوا على مكانتكم ومكانكم[1] واستمرّوا على طريقتكم

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « مكن » ٤٧١

وناحيتكم[1] ومنهجكم وشاكلتكم فإنّى عاملٌ على منهجى وطريقتى . إنّكم سوف تعلمون من تكون له عاقبة الدّار الأولى منّا ومنكم ، وسوف تتأكّدون يوم القيامة من سيكون من نصيبه العاقبة الحسنة وهي الجنّة والثّمرة الطّيّبة لعمل الصّالحات فى هذه الدّار الأولى . ولمّا كان الكافرون ظالمين وكان من نصيبهم التّذييل : ﴿ إنّه لا يفلح الظّالمون ﴾ فذلك معناه أنّ الفلاح من نصيب المؤمنين العادلين الّذين يعبدون الله تعالى وحده لا شريك له ، وإنّ المصطفى ﷺ هو إمام المتّقين المفلحين الفائزين . ولمّا كانت الجنّة ، وهي العاقبة الحسنة للدّار الأولى ، من نصيب المؤمنين ، كانت النّار ، وهي العاقبة السّيّئة من نصيب الكافرين .

---

(١) تفسير ابن كثير ١٧٨/٢ .

[١٥]

« قد خسر وضلّ الّذين افتروا على الله كذبًا وقتلوا
أولادهم وحرّموا ما رزقهم الله »

الآيـــات (١٣٦ ـ ١٤٠)

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ
نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ
فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ
وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ
سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ
لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ
شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾
وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ
نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ
اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا
يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ
خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِنْ يَكُنْ
مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ
حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ
سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ
قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

تدور آيات القسم حول تزيين شياطين الجنّ والإنس إتيان كبائر الذّنوب . إنّ شياطين الجنّ زيّنوا لشياطين الإنس أن يجعلوا لله تعالى ممّا خلق من الزّرع والأنعام نصيبًا فقالوا هذا لله تعالى بزعمهم ، وهو فى الحقيقة للأصنام ، وهذا لشركائنا من الأصنام الّتى يزعمون أنّها تقرّبهم إلى الله زلفى . إنّ ما كان للأصنام لا يصل شيءٌ منه إلى الله تعالى وما كان لله تعالى فهو يصل إلى الأصنام وسدنتها . ما أسوأ هذا الحكم وأقبحه . وكذلك زيّن لكثيرٍ من المشركين قتلَ أولادهم شركاؤهم ومعبودوهم من شياطين الجنّ من أجل إهلاكهم وإضلالهم . ولو شاء الله تعالى ما افتروا على الله تعالى شيئًا من الكذب . ويلفت الانتباه فى القول : ﴿ زيّن لكثيرٍ من المشركين قتلَ أولادهم شركاؤهم ﴾ التّعبيرُ عن المعانى فى هذه الطّريقة المعجزة المستفيدة من روح نحو اللّغة العربيّة بحيث إنّ مراعاة هذه الرّوح قلبت رأسًا على عقب قواعد النّحو فجاء الجارّ والمجرور الفضلة الّذى حقّه التّأخير متقدّمًا : ﴿ لكثيرٍ ... ﴾ ثمّ جاء المفعول الّذى حقّه أن يتأخّر عن الفاعل متقدّمًا : ﴿ قتلَ .... ﴾ ثمّ جاء الفاعل ، الّذى حقه أن يتقدّم وأن يلي الفعل ، متأخّرًا : ﴿ شركاؤهم ﴾ إنّ الاهتمام سبب تقديم الّذى حقّه التّأخير . وإنّ الّذى أسعف على تحقيق هذه الغاية السّامية والارتقاء إلى مستوى الإعجاز وسائل أمن اللّبس فى هذه اللّغة الشّريفة ، ومن بينها ظاهرة الإعراب الّتى تتيح للّفظ الحركة الواسعة فى الجملة أو العبارة مع احتفاظه بموقعه ووظيفته . ومن مظاهر افتراء القوم على الله تعالى فى مجال الأنعام تحريمهم أكل بعضها على بعض النّاس ، وتحريم ظهور بعضها أن تركب ، وعدم ذكرهم اسم الله تعالى عند التّعامل مع بعضها ، وتحريم ما فى بطون بعضها على الإناث دون الذّكور ، ومساواة الذّكور والإناث فى أكل ما وُلِد ميتًا من الأنعام . إنّ الله الحكيم العليم سيجزيهم على افترائهم . ويصدر الحكم

أخيرًا بالخسران والسّفه وعدم العلم على الّذين قتلوا أولادهم ووأدوا بناتهم ، وبالافتراء على الله تعالى والضّلال وعدم الاهتداء على الّذين حرّموا ما رزقهم الله تعالى . إنّ الأوّلين ارتكبوا الحرام الّذين يعلمون أنّه حرام ولكنّهم ضعفوا عن ارتكابه ، وإنّ الأخيرين اجترءوا بالابتداع فى الدّين فحرّموا ما أحلّ الله تعالى . إنّ الأخيرين هم الأسوأ وإنّ صفاتهم تبعًا لذلك هي الأسوأ .

الآيـــة رقـــم (١٣٦)

قال تعالى : ﴿ وجعلوا لله ممّا ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم . ساء ما يحكمون ﴾ .

إنّ كفّار مكّة ومن شاكلهم من شياطين الإنس الّذين يوحى بعض شياطينهم إلى بعض شياطين الجنّ وبالعكس زخرف القول غرورًا قد جعلوا لله تعالى ممّا خلق وبرأ من الحرث والزّروع والثّمار ومن الأنعام نصيبًا وقسما . وقد قال المشركون عن النّصيب الّذى جعلوه لله تعالى : ﴿ هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ﴾ والمراد بالشّركاء أوثانهم بإجماعٍ من أهل التّأويل عليه[1] ولماذا يجعلون لله تعالى نصيبًا وللأوثان فى ذات الوقت نصيبًا ؟ لأنّ الأوثان حسب زعمهم تقرّبهم إلى الله تعالى زُلْفى ، فليس جعل النّصيب لله تعالى بباعث إفراده جلّ وعلا بالخضوع والعبادة وإنّما بباعث إشراك الأوثان معه جلّ وعلا فى العبادة ولهذا جاء الجّارّ والمجرور : ﴿ بزعمهم ﴾ للتّنبيه على الخطأ الشّنيع الّذى ارتكبوه بإيحاءٍ من نفوسهم الأمّارات بالسّوء ومن شياطين الإنس والجنّ إخوانهم . والمعروف أنّ الزّعم حكاية قولٍ يكون مظِنّةً للكذب ، ولهذا جاء فى القرآن فى كلّ موضعٍ ذُمَّ القائلون به[2] وقد كان

---

(١) تفسير الطّبريّ ٣٢/٨ . (٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ « زعم » ٢١٣ .

الاستدراك بالزّعم على قول المشركين لصرف الاهتمام إلى سوء النّيّة والقصد وبذلك فَقَدَ عَمَلُ المشركين الّذى تحقّق فيه فى الظّاهر شرط الصّلاح فَقَدَ عملهم الشّرط الآخر وهو شرط سلامة النيّة وصلاح القصد فأحبط الله تعالى أعمال المشركين . وقد جاء فى هذا المعنى قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الفرقان[1] : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثورا ﴾ .

ولم يقف المشركون عند سوء النّيّة وفساد القصد فحسب إنّما تجاوزوا ذلك إلى إفساد العمل الّذى يبدو وللوهلة الأولى صالحًا . إنّ الآية الكريمة عبّرت عن هذا الإفساد فى القول : ﴿ فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم . ساء ما يحكمون ﴾ .

إنّ المشركين فيما يتعلّق بالزّروع والثّمار يقولون هذا لله تعالى نعطيه للضّيفان والمساكين ومن إليهم وهذا لشركائنا من الأصنام الّتى نعبدها لتقرّبنا إلى الله تعالى زُلْفَى ، ومن مظاهر عبادتها لأجل هذه الغاية جعل نصيبٍ باسمها يُعْطَى لسدنتها . إنّ النّصيب الّذى جعلوه للأوثان والأصنام والسّدنة لا يصل إلى الله تعالى وإنّ النّصيب الّذى جعلوه لله تعالى يصل إلى الأوثان والأصنام . ساء حكم القوم وقبُح . وتفسير هذا السّوء فى الحكم والظّلم فى القَسْم أنّ ما يجعله المشركون من الحرث نصيبًا لله تعالى ومن الزّروع والثّمار إن وصله ـ مَثَلاً ـ الماء المخصّص لسقي حرث نصيب الأوثان أضيف ذلك النّصيب إلى الأوثان والسّدنة بحجّة أنّ الله تعالى غنيٌّ وأنّ السّدنة ومن فى حكمهم فقراء ! أمّا إذا وصل الماء المخصّص لسقي الّذى جعلوه للأوثان إلى النّصيب المخصّص للذّات العليّة فإنّهم يجعلون ما للذّات العليّة نصيبًا للسّدنة لأنّهم فقراء ولأنّ الله تعالى غنيّ ! ما أحطّ هذه العقول وما أقبح منطقها . وقل الشّيء ذاته عن الثّمار فما جعل نصيبًا لله تعالى إذا اختلط بما جعل

---

(١) الآية ٢٣ .

نصيبًا للأوثان جعل كلُّه نصيبًا للأوثان . وما جعل نصيبًا للأوثان إذا اختلط بما جعل نصيبًا لله تعالى جعل كلُّه نصيبًا للأصنام وللسّبب السّابق ذاته !

وبشأن الأنعام يحرّمون من أموالهم البحيرة والسّائبة والوصيلة والحام فيجعلونه للأوثان ويزعمون أنّهم يحرّمونه قربةً لله[1] جاء في سورة المائدة[2] قوله تعالى : ﴿ ما جعل الله من بحيرةٍ ولا سائبةٍ ولا وصيلةٍ ولا حامٍ ولكنّ الّذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ﴾ .

إنّ في التّعقيب بالقول : ﴿ بزعمهم ﴾ دليلاً على خطأ القوم بشأن النّصيب الّذى زعموا أنّه لله تعالى وهو في الحقيقة للأوثان ، وإنّ في التّعقيب بالقول : ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ دليلاً على خطأ القوم الواضح في أثناء ترجمة ذلك الزّعم إلى عمل . وهكذا يتجلّى خطأ المشركين في النّيّة والقول والعمل لأنّ كلّ ذلك بإيحاءٍ من شياطين الإنس والجنّ . وقد تجاوز إيحاء الشّياطين للمشركين في الانحطاط هذا الدّرك على نحو ما يتبيّن من الآية الكريمة التّالية فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٣٧)

قال تعالى : ﴿ وكذلك زيّنَ لكثيرٍ من المشركين قتلَ أولادهم شركاؤهم ليردوهم ولِيَلْبِسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾ .

كما زيّن شياطين الإنس والجنّ للمشركين أن يجعلوا لله تعالى من الحرث والأنعام نصيبًا وللأوثان نصيبًا زيّنوا لكثيرٍ من المشركين قتل الأولاد والبنات خوف الفقر الواقع فعلاً أو المتوقّع مستقبلاً ، وقتل البنات بالذّات لسببٍ آخر هو خوف العار . ومن السّور الكريمات الّتى تحدّثت في هذا الشّأن سورة النّحل الآية ٥٨ و٥٩ وسورة الزّخرف الآية ١٧ وسورة التّكوير الآية ٨ و٩ وإنّما زيّنت الشّياطين

---

(١) تفسير ابن كثير ١٧٩/٢ .

(٢) الآية ١٠٣ .

للمشركين ارتكاب هذا القبيح ليهلكوهم ويوردوهم مواطن الرّدى ، وليخلطوا عليهم دينهم ويوقعوهم فى كلّ مشكلةٍ دينيّةٍ ومعضلة عقديّة .

ولّما كان كلّ ما يحدث فى هذا الكون من خيرٍ أو شرّ إنّما يحدث بعلم الله تعالى وإرادته ، ويوم الحساب يكون السّؤال والجواب ، الثّواب أو العقاب فإنّ الآية الكريمة بيّنت أنّ الله سبحانه وتعالى لو شاء لهم ألاّ يفعلوا ذلك المنكر ما فعلوه . وتبييناً لفظاعة هذا المنكر الّذى لا يرضى الله تعالى عنه فضلاً عن الأمر به يجىء خطابًا للمصطفى ﷺ أساسًا ولكلّ مسلمٍ وراء ذلك : ﴿ فذرهم وما يفترون ﴾ والمعنى دعهم ايّها الرّسول الكريم وما يفترون على الله تعالى من كذبٍ بعد أن كفروا وصدّوا عن سبيل الله تعالى وائتمروا بأوامر شياطين الإنس والجنّ وافتروا على الله تعالى الكذب فقالوا ما لم يُقَلْ لهم وأتوا كلّ منكرٍ نُهوا عن ارتكابه ومن ذلك قتل الأولاد . وبذلك يكون المشركون قد تورّطوا فى ارتكاب الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى وهو الشّرك وفى ارتكاب واحدٍ من كبائر الذّنوب وهو قتل النّفس الّتى حرّم الله تعالى قتلها إلاّ بالحقّ . وأيّ نفسٍ تلك الّتى يدفنها العربيّ قبل الإسلام بالحياة ؟ إنّها فلذة الكبد ، ولكنّ المشركين قد تحجّرت قلوبهم ، وغلظت أكبادهم ، ونزعت الرّحمة من أفئدتهم . وليس وراء ذلك الشّقاء شقاء .

وتتحدّث الآية الكريمة التّالية عن بعض سخافات القوم وعن جراءتهم على الله تعالى فى التّحليل والتّحريم وكأنّ الله تعالى ليس له وحده دون سواه الأمر والحكم فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٣٨)

قال تعالى : ﴿ وقالوا هذه أنعامٌ وحرثٌ حِجْرٌ لا يطعمها إلاّ من نشاء بزعمهم وأنعامٌ حُرِّمَتْ ظهورها وأنعامٌ لا يذكرون اسم الله عليها افتراءً عليه . سيجزيهم بما كانوا يفترون ﴾ .

إنّ أوّل ما يلفت الانتباه اتّفاق الآية الكريمة مع الآية الكريمة السّابقة فى النّصّ على افتراء القوم فى نهايتها . جاء هنالك القول : ﴿ فذرهم وما يفترون ﴾ وجاء هنا القول : ﴿ سيجزيهم بما كانوا يفترون ﴾ وقد استعمل الافتراء فى القرآن الكريم دليلاً على الكذب والشّرك والظّلم(١) .

ومن البيّن أنّنا بصدد ثلاثة أنواعٍ من افتراءات المشركين يتمّ فيها التّحوّل من النّوع الأشدّ سوءًا إلى النّوع الّذى يقلّ عنه سوءًا إلى الّذى يليه مع اشتراك الأنواع الثّلاثة فى السّوء وفى الافتراء على الله تعالى الكذب بحقّها .

أمّا الافتراء الأوّل فيشمله القول : ﴿ وقالوا هذه أنعامٌ وحرثٌ حِجرٌ لا يطعمها إلاّ من نشاء بزعمهم ﴾ ولازلنا أمام الجارّ والمجرور : ﴿ بزعمهم ﴾ الّذى جاء فى الآية الكريمة الأولى فى القِسْم والّذى ينبّه فورًا على كذب القوم وافترائهم . إنّ المشركين يشيرون إلى الأنعام القريبة منهم وبخاصّة الإبل ، وإلى الزّروع والثّمار القريبة منهم كذلك ولهذا جاء على لسانهم اسم الإشارة الدّالّ على القرب : ﴿ هذه ﴾ إنّهم يشيرون إلى الأنعام والثّمار ويقولون إنّها حِجْرٌ وحرامٌ لا يطعمها إلاّ من نشاء بزعمهم وبأهوائهم من سدنة الأوثان ومن الرّجال دون النّساء .

ومن البيّن أنّ المشركين يحرّمون على بعض النّاس أكل ما أحلّ الله تعالى أكله من الثّمار واللّحوم وشرب ما أحلّ الله تعالى شربه من الألبان الّتى يمنعون النّساء من ذوقها ويقصرون شربها على الرّجال .

وأمّا الافتراء الثّانى فيشمله القول : ﴿ وأنعامٌ حرّمت ظهورها ﴾ وحينما يكون التّحريم متعلّقًا بالظّهور فذلك معناه أنّ الحديث متعلّقٌ بما يُتّخذُ من الأنعام رَكوبًا ، وذلك متعلّقٌ بالإبل على جهة الخصوص . إنّ أولئك المفترين على الله تعالى الكذب يعطّلون فائدةً عظيمةً للإبل بمنعها من حمل النّاس وحمل الأثقال وقد قال عزّ من قائل(٢) : ﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلاّ بشقّ الأنفس . إنّ ربّكم

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ : « فرى » ٢٧٩ . (٢) سورة النّحل ٧ .

لرءوفٌ رحيم ﴾ . روى البخاري ومسلم والنّسائيّ عن سعد بن المسيّب قال :... والحام فحل الإبل يضرب الضِّراب المعدود . فإذا قضى ضرابه ودّعوه للطّواغيت وأعفوه عن الحمل فلم يحمل عليه شيءٌ وسمّوه الحامى(١) .

وأمّا الافتراء الثّالث فيشمله القول : ﴿ وأنعامٌ لا يذكّرون اسم الله عليها افتراءً عليه﴾ قال مجاهد : كان من إبلهم طائفةٌ لا يذكرون اسم الله عليها ولا فى شيءٍ من شأنها لا إن ركبوا ولا إن حلبوا ولا إن حملوا ولا إن نتجوا ولا إن عملوا شيئا(٢) .

إنّ الله سبحانه وتعالى سيجازى أولئك المفترين يوم القيامة : ﴿ سيجزيهم بما كانوا يفترون ﴾ ومن البيّن أنّ التّذييل ينسحب على الافتراءات الثّلاثة . ووراء ذلك نستطيع أن نفهم من التّعقيب على الافتراء الأوّل بالقول : ﴿ بزعمهم ﴾ ومن التّعقيب على الافتراء الثّالث بالقول : ﴿ افتراءً عليه ﴾ أنّ عوار هذين الافتراءين مفضوحٌ لكلّ ذى عينين ومرفوض . إنّهم بشأن الافتراء الأوّل يزعمون أنّ ما أحلّه الله تعالى حرام . وبطبيعة الحال هم الّذين حرّموا ما أحلّ الله تعالى . وإنّهم بشأن الافتراء الثّالث لا يذكرون اسم الله تعالى على تلك الأنعام خلافًا لما أمر به الشّارع الحكيم من ذكر اسم الله تعالى على كلّ أمرٍ ذى بال(٣) وبالمقارنة بين هاذين الافتراءين وبين الافتراء الثّانى الّذى يعنيه القول : ﴿ وأنعامٌ حرّمت ظهورها ﴾ يتبيّن أنّه يشترك مع الافتراء الأوّل فى تحريم القوم ما أحلّ الله تعالى ولأجل هذا التّحريم ذُكِر الافتراءان متتابعين . وحينما يتأمّل المرء هذا الافتراء الثّانى لا يجد سوى حُمْق القوم سببًا لتحريم ظهور هذا النّوع من الإبل . إنّ وضوح الحمق والسّفه أغنى عن التّعقيب المباشر خلافًا للافتراءين الآخرين اكتفاءً بالتّعقيب الشّامل فى التّذييل : ﴿ سيجزيهم بما كانوا يفترون ﴾ .

وبشأن لفظ حِجْر وهو بمعنى حرام فى القول : ﴿ وقالوا هذه أنعامٌ وحَرْثٌ حِجْرٌ لا يطعمها إلاّ من نشاء بزعمهم ﴾ نودّ أن نقف عنده من زاوية تطوّر الدّلالة

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١٠٧/٢ . (٢) انظر تفسير ابن كثير ١٨٠/٢ وتفسير الطّبريّ ٣٥/٨.

(٣) أشرنا إلى هذا المعنى فى أثناء دراستنا للبسملة فى تأمّلات فى سورة الفاتحة .

وملابساتها حتّى أفاد هذا المعنى . حينما ننظر إلى الأصل اللّغويّ الحاء والجيم والرّاء يتبيّن أنّه أصلٌ واحدٌ مطّرد وهو المنع والإحاطة على الشّيء[١] والحَجَر معروف ، واحسب أنّ الباب كلّه محمولٌ عليه ومأخوذٌ منه ، لشدّته وصلابته[٢] والحَجْر والتّحجير أن يجعل حول المكان حجارةٌ يقال : حَجَرْته حَجْرًا فهو محجور ، وحجّرته تحجيرًا فهو محجَّر . وسمّي ما أحيط به الحجارة حِجْرًا وبه سمّي حِجْر الكعبة وديارُ ثمود . قال تعالى : ﴿ كذّب اصحاب الحِجْر المرسلين ﴾ وتُصُوِّر من الحَجْر معنى المنع لما يحصل فيه فقيل حِجْر لكون الإنسان في منعٍ منه ممّا تدعو إليه نفسه . وقال تعالى : ﴿ هل في ذلك قسمٌ لذى حِجْر ﴾[٣] وممّا روعي فيه الاستدارة مَحْجِر العين : ما يدور بها ، وهو الّذى يظهر من النّقاب . والحِجْر : حطيم مكّة ، هو المُدار بالبيت[٤] وممّا روعي فيه المنع الحِجْر : الحرام . وكان الرّجل يلقى الرّجل يخافه في الأشهر الحُرُم فيقول : حِجْرًا أي حرامًا ، ومعناه حرامٌ عليك أن تنالني بمكروه . فإذا كان يومُ القيامة رأى المشركون ملائكة العذاب فيقولون : ﴿ حِجْرًا محجورا ﴾ . فظنّوا أنّ ذلك ينفعهم في الآخرة كما كان ينفعهم في الدّنيا[٥] وقال تعالى[٦] : ﴿ وهو الّذى مرج البحرين هذا عذابٌ فراتٌ وهذا مِلْحٌ أجاجٌ وجعل بينهما برزخًا وحجرًا محجورا ﴾ .

وبهذا يريد المشركون من القول على لسانهم : ﴿ هذه أنعامٌ وحرثٌ حِجْر ﴾ كلاًّ من الإحاطة والمنع .

والآية الكريمة التّالية تتحدّث في المعنى ذاته فإلى .

---

(١) انظر معجم مقاييس اللّغة : « حجر » ١٣٨/٢ .

(٢) معجم مقاييس اللّغة : « حجر » ١٣٨/٢ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « حجر » ١٠٨ و١٠٩ وانظر معجم مقاييس اللّغة : « حجر » ١٣٨ .

(٤) معجم مقاييس اللّغة : « حجر » ١٣٨/٢ و١٣٩ .

(٥) معجم مقاييس اللّغة : « حجر » ١٣٩/٢ وتمام الآية ٢٢ من سورة الفرقان : ﴿ يوم يرون الملائكة لا بُشْرَى يومئذٍ للمجرمين ويقولون حِجْرًا محجورا ﴾ .

(٦) سورة الفرقان ٥٣ وقد درسنا القول : ﴿ حجرًا محجورًا ﴾ في كتابنا : تأمّلات في سورة الفرقان ص ٨٢ وص ١٣٤ .

الآيـــة رقـــم (١٣٩)

قال تعالى : ﴿ وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا ومحرَّمٌ على أزواجنا وإن يكن ميتةً فهم فيه شركاء . سيجزيهم وصفهم . إنّه حكيمٌ عليم ﴾ .

تتحدّث الآية الكريمة عمّا فى بطون الأنعام من زاوية تحليل المشركين له لمن شاءوا وتحريمه على من شاءوا بعد أن كان حديث الآية الكريمة السابقة عن الأنعام وظهورها وعن الزّروع والثّمار . وكأنّ الطّباق بين الظّهور والبطون فى الآيتين الكريمتين من وسائل الرّباط بينهما . إنّ من مظاهر جراءة المشركين على الله تعالى أنّ ما خلق الله تعالى فى بطون الأنعام من أجنّةٍ ولبن قصروا أكله وشربه على الذّكور وحرّموه على الإناث اللّاتى عبّر عنهنّ بلفظ الأزواج باعتبار ما يؤلن إليه . وكأنّ نظرة القوم الجاهليّة إلى الأنثى لا تهتمّ إلاّ بما يُرْجى من نفعها مستقبلاً إن نجت من الوأد . وها هي ذى الأنثى يعبّر عنها بالزّوجة بنيّة الاستمتاع بهنّ والحصول على الذّرّيّة ، وها هي ذى تُحْرَم مِنْ أكل ما أحلّ الله تعالى لها أكله ومن شرب ما أحلّ الله تعالى لها شربه ويُعْطَى حقّها للذّكور ظلمًا وعدوانًا . ومتى يكون لها مثل حقّ الذّكر ؟ حينما يكون ما فى بطون الأنعام ميتة ! روي عن ابن عبّاسٍ أنّ الشّاة إذا ولدت ذكرًا ذبحوه وكان للرّجال دون النّساء . وإن كانت أنثى تُرِكَتْ فلم تُذْبح. وإن كانت ميتةً فهم فيه شركاء . فنهى الله عن ذلك[١] .

وعلى عادة آيات هذا القسم فى إصدار التّعقيبات على الفور أو التّراخى يأتى هنا التّعقيب الفوريّ : ﴿ سيجزيهم وصفهم ﴾ أي كذبهم وافتراءهم ، أي يعذّبهم على ذلك[٢] وتذكّرنا لفظة الوصف هنا بقوله عزّ من قائل فى سورة النّحل[٣] : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلالٌ وهذا حرامٌ لتفتروا على الله الكذب .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢/١٨٠ وتفسير الطّبريّ ٨/٣٦ وتفسير القرطبيّ ٢٥٣١ .

(٢) تفسير القرطبيّ ٢٥٣٢ .

(٣) الآية ١٦ و١٧ .

إنّ الّذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاعٌ قليلٌ ولهم عذابٌ أليم ﴾ كما تذكّرنا بمجيء جملة ﴿ تصفون ﴾ على لسان يوسف عليه السّلام مخاطبًا إخوته الّذين اتّهموه بأنّه سرق من قبل ، دون أن يعلموا أنّ عزيز مصر الّذى يخاطبونه هو يوسف عليه السّلام . جاء فى سورة يوسف[1] قوله تعالى : ﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل . فأسرّها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم . قال أنتم شرٌّ مكانًا والله أعلم بما تصفون ﴾ وقبل ذلك جاءت الجملة على لسان يعقوب عليه السّلام .

إنّ الله سبحانه وتعالى حكيمٌ فى كلّ شيءٍ ومنها الأحكام كالمساواة بين الذّكور والإناث فى أصل الأحكام ، ومنها الجزاء العادل والعقاب المماثل لكذب المشركين على الله تعالى فى مجال الأحكام وغيرها . وإنّ الله سبحانه وتعالى عليمٌ لا يخفى عليه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء ومن ذلك جراءة المشركين على أحكام الله تعالى وافتراؤهم الكذب على الذّات العليّة .

ولمّا كانت الآيات الكريمات فى هذا القسم تدور معانيها حول محورين هما قتل الأولاد وتحريم ما أحلّ الله تعالى فإنّ الآية الكريمة الأخيرة فى القسم تتحدّث فى هذين المحورين فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٤٠)

قال تعالى : ﴿ قد خسر الّذين قتلوا أولادهم سَفَهًا بغير علمٍ وحرّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله . قد ضلّوا وما كانوا مهتدين ﴾ .

تنصّ الآية الكريمة على خسران الّذين قتلوا أولادهم ووأدوا بناتهم خوف الفقر الواقع أو المحتمل وخوف العار بدافع السّفه والحمق وبباعث الجهل وعدم العلم . إنّ هؤلاء الحمقى يسمحون لأنفسهم أن يقتلوا النّفس الّتى حرّم الله تعالى قتلها إلاّ

---

(١) سورة يوسف ١٨ .

بالحقّ من ناحية ، وهم يقتلون أبناءهم وفلذات أكبادهم من ناحيةٍ أخرى . فما أشدّ خسرانهم دينًا ودنيا ، آخرةً وأولى . إنّهم نالوا غضب الله تعالى من ناحية ، وهم قد خسروا أولادهم من ناحيةٍ أخرى . وهم وراء ذلك قد حرّموا ما رزقهم الله تعالى مفترين على الله تعالى الكذب زاعمين أنّ الله سبحانه وتعالى قد حرّم ذلك . إنّهم بشأن قتل النّفس قد تجاوزوا إلى ما حرّم الله تعالى وتعدّوا إليه وارتكبوا ما حرّم الله تعالى . وإنّهم بشأن تحريم ما أحلّ الله تعالى قد تجاوزوا إلى ما أحلّ الله تعالى وتعدّوا إليه فحرّموا ما أحلّ الله تعالى وهذا هو الابتداع فى الدّين . وإذا كان وصف القوم بالخسران يتعلّق بقتل الأولاد سفهًا أوّلاً وبتحريم ما أحلّ الله تعالى آخرًا ، فإنّ وصف القوم بالضّلال وتأكيد الضّلال بنفي الاهتداء يتعلّق بتحريم ما أحلّ الله تعالى أوّلاً وبقتل الأولاد سفهًا آخرًا .

وحينما نقارن بين القول : ﴿ قد خسر ﴾ المتعلّق بقتل الأولاد أساسًا وبين القول: ﴿ قد ضلّوا وما كانوا مهتدين ﴾ المتعلّق بتحريم ما أحلّ الله تعالى أساسًا فإنّا نتبيّن أنّ إثبات الضّلال وتأكيد الضّلال بنفي الاهتداء آكد فى إثبات الضّلال ونفي الاهتداء من إثبات الخسران رغم تداخل الصّفات فى الموضعين . وحينما ننظر إلى متعلّق الخسران نتبيّن أنّه إحلال ما حرّم الله تعالى ، وحينما ننظر إلى متعلّق الضّلال نتبيّن أنّه تحريم ما أحلّ الله تعالى ، وكأنّ الّذى يحرّم ما أحلّ الله تعالى أشدّ سوءًا وأكثر ضلالاً من الّذى يحلّ ما حرّم الله تعالى ، لأنّ الّذى يرتكب ما حرّم الله تعالى ارتكابه يعلم منذ اللّحظة الأولى انّه يأتى منكرًا ، بما فى ذلك المجاهرون . أمّا الّذى يحرّم ما أحلّ الله تعالى فكأنّه يشعر فى أعماقه بأنّ ثمّة نقصًا فى الدّين يريد أن يتمّه ببدعته وبتحريمه ما أحلّ الله تعالى . ولا شكّ أنّ الأخير يستحقّ أن يوصف بالضّلال المبين وأن يُنْفَى عنه الاهتداء بأكثر من الّذى يأتى الحرام وهو على علمٍ أنّه يغضب الله تعالى بما يأتيه بسبب ضعفه عن مقاومة النّفس الأمّارة بالسّوء والشّيطان الرّجيم.

والحقيقة أنّ الّذين حرّموا ما رزقهم الله تعالى قبل أن يكون حظّهم من الضّلال ومن عدم الاهتداء أكبر هم يوصفون بأنّهم مفترون على الله تعالى الكذب على الفور .

وكأنّ الّذين قتلوا أولادهم قد وصفوا بثلاث صفاتٍ سيّئة هي الخُسران والسّفه وعدم العلم ، وكأنّ الّذين حرّموا ما رزقهم الله تعالى قد وُصِفوا أيضًا بثلاث صفاتٍ سيّئة هي الافتراء على الله والضّلال وعدم الاهتداء . ومن البيّن أنّ كلاً من الصّفات الثّلاث الأخر تزيد فى السّوء على كلٍّ من الصّفات الثّلاث الأُول ، ومن الطّبيعيّ أن يكون حظّ الأخيرين من مجموع السّوء أكثر من حظّ الأوّلين . إنّ الأوّلين اعتدوا على حقّ الله تعالى مرورًا بعباده وإنّ الأخيرين اعتدوا على حقّ الله تعالى رأسًا وبطريقٍ مباشر .

[١٦]

« الله تعالى خالق الجنّات والأنعام وله وحده حقّ التّحريم علينا وعلى الّذين من قبلنا »

الآيـــات (١٤١ ـ ١٤٧)

۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ
أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ
مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ
مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ
حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾
وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ
ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾
ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ
قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾
وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ
حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ
أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ
عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ
فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ
مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ
فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا
كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ
شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا
ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾
فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ
بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

زيّن شياطين الجنّ لشياطين الإنس الحكم بغير ما أنزل الله تعالى بشأن الزّرع والضّرع على نحو ما بيّنت آيات القسم السّابق . وإنّ آيات هذا القسم التّالى تبيّن حكم الله تعالى فى الزّرع والضّرع ، فى الحرث والأنعام وتؤكّد أنّ لله تعالى وحده لا شريك له الخلق والأمر ، الإبداع والحكم . بشأن الزّرع قرّر السّياق أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى أوجد على غير مثالٍ سابقٍ جنّاتٍ معروشاتٍ كالعنب وغير معروشاتٍ كالقرع وأوجد النّخل وأوجد الزّرع مختلفًا أكله شكلاً ولونًا وطعمًا ورائحة ، وأوجد الزّيتون والرّمّان متشابهًا ورقًا ومختلفًا ثمرًا من حيث الحجم واللّون والطّعم والرّائحة . وبشأن العباد ثمّة أمرٌ ونهي : ﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر ﴾ ﴿ ولا تسرفوا ﴾ وبشأن ربّ العباد ثمّة أمرٌ منه جلّ وعلا وشبه نهي : ﴿ وآتوا حقّه يوم حصاده ﴾ ﴿ إنّه لا يحبّ المسرفين ﴾ وبشأن الأنعام أنشأ الله تعالى منها حَمولةً وأوجد رَكوبا كما جعل من أصوافها وأوبارها وأشعارها فِراشًا وأثاثًا وكساءً . هذا بالإضافة إلى أكل لحمها ويلحق بذلك شرب لبنها فعلينا أن نمتثل أوامر الله تعالى بشأنها وألاّ نتّبع خطوات الشّيطان الرّجيم البيّن العداوة للإنسان كيلا يضلّنا كما أضلّ المشركين . وقد أنشأ الله تعالى من الأنعام ثمانية أزواج أربعةً ذكورًا وأربعةً إناثًا من الضّأن والمعز والإبل والبقر . وقد قدّم السّياق الأرفع منزلةً من الضّأن والإبل ، على المعز والبقر . وقدّم الأصغر من الضّأن والمعز ، وقدّم الضّأن الّذى يغلب عليه البياض على المعز الّذى يغلب عليه السّواد . وفى أسلوب الاستفهام ينكر السّياق على المشركين تخصيصهم دون حكمة بعض أصناف الحيوان بالتّحريم وذلك عن طريق سؤالهم : ﴿ آلذّكرين حرّم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين ﴾ كما ينكر السّياق أن يكون تحريمهم قد اعتمد على علمٍ صحيح أو أن يكونوا أحياء وشهداء حينما وصّاهم الله تعالى بتلك الأوامر والنّواهي . إنّ القوم

كاذبون ولا أحد أظلم ممّن افترى على الله كذبًا ليضلّ النّاس بغير علمٍ وإنّ الله تعالى لا يهدى القوم الظّالمين . ويبيّن السّياق ما حرّم الله تعالى من الأنعام ويحصرها فى الميتة بمختلف الصّور وفى الدّم المسفوح ولحم الخنزير وما ذكر عليه اسم غير الله تعالى ، ويُستثنى المضطرّ ﴿ غير باغ ولا عاد ﴾ كما يبيّن السّياق ما حرّم الله تعالى على بنى إسرائيل الباغين من حلال الأطعمة وطيّبها . وتشير آخر آيات القسم إلى رحمة الله تعالى الواسعة ، ومن مظاهر ذلك حصر المحرّم على الأمّة المسلمة فى الخبائث وإلى بأسه الشّديد جلّ وعلا ، ومن مظاهر ذلك تحريم بعض الطّيّبات على بنى إسرائيل بسبب بغيهم .

الآيـــة رقـــم (١٤١)

قال تعالى : ﴿ وهو الّذى أنشأ جنّاتٍ معروشاتٍ وغَيْرَ معروشاتٍ والنّخلَ والزّرعَ مختلِفًا أكُلُهُ والزّيتونَ والرّمّانَ متشابهًا وغَيْرَ متشابه . كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقّه يوم حصاده ولا تسرفوا . إنّه لا يحبّ المسرفين ﴾ .

من البيّن أنّ الآية الكريمة تتحدّث عن الزّرع الّذى عبث به المشركون وبأحكامه بإيحاءٍ من شياطين الجنّ فى المقام الأوّل . إنّ الآية الكريمة تقرّر فى القول : ﴿ وهو الّذى أنشأ جنّاتٍ ﴾ أنّ الله سبحانه وتعالى هو وحده دون سواه من أوثانٍ وأصنامٍ ومعبوداتٍ زائفة الّذى أنشأ جنّاتٍ ، وأبدع حدائق ذات بهجة ، وأوجد من العدم بساتين تملأ كلّ عينٍ لذّةً وكلّ نفسٍ سرورا . وتقفز الآية الكريمة إلى وصف هذه الحدائق والبساتين باستعمال لفظ : ﴿ جنّات ﴾ الّذى يمتاز بقدرته على التنبيه إلى خضرة النّبات الكثيفة الواسعة إلى الحدّ الّذى غطّت معه الأرض وسترتها ، لأنّ لفظ الجنّة مشتقّ من الأصل اللّغويّ : ﴿ جنن ﴾ الّذى يدلّ على السّتر والتّغطية . وكما

أفادت الجنّة تغطية الأرض بالخضرة والسّتر أفاد لفظ الجِنّة (بكسر الجيم) استتار هذا الجنس من المخلوقات عن الأعين وذلك فى مقابل إفادة لفظ الإنس المقابل رؤيةَ هذا الجنس والأُنْسَ به تبعًا لذلك . وقل الشّيء ذاته عن الجَنان بمعنى القلب لكونه مستورًا عن الحاسّة ، والمِجَنّ والمِجَنّة ، بمعنى التُّرس الّذى يَجُنّ صاحبه أي يستره . قال عزّ وجلّ : ﴿ اتّخذوا أيمانهم جُنّة ﴾ والجنين الولد ما دام فى بطن أمّه وجمعه أجنّة[1] والجِنّة : الجنون ، وذلك أن يُغطّى العَقل ، وجَنان اللّيل : سواده وسَتْره الأشياء[2] .

وإنّ مجيء لفظ : ﴿ جنّات ﴾ فى صيغة الجمع ينبّه إلى العدد الّذى لا يحصيه إلاّ الله تعالى من الحدائق والبساتين والجنّات . وإذا كانت الجنّة الواحدة تتألّف من الزّروع والأشجار على نحو ما بيّنت الآية الكريمة ، وكانت السّورة الكريمة قد أشارت من قبل إلى فلق الله تعالى الحبّ كي يخرج الزّرع ، وإلى فلق الله تعالى النّوى كي يخرج الشّجر ، فإنّ لفت السّورة الكريمة الانتباه إلى الحبّ والنّوى أصل الزّرع والشّجر يقدح زناد الفكر كي يعود بشأن الزّرع أو الحرث إلى الخطوات السّابقة والملابسات والأسباب الّتى أوجدها الله تعالى حتّى أمكن للنّبتة أن تظهر على وجه الأرض وللشّجرة أن تقف على ساقها . ومن هذه الأسباب ما هو جليّ كالتّربة والهواء والماء والشّمس والنّور والظّلمة ، ومنها ما هو خفيّ ، وما أكثر هذه الأمور الخفيّة فى حقّ النّبات والجماد ، الإنسان والحيوان ، الّتى بدأ العلم يكشف عن بعض أسرارها الهائلة . إنّ العقل السّليم والصّدر الخالي من الغشّ والقلب النّقيّ من الشّوائب ينتهى كلٌّ إلى نتيجةٍ واحدةٍ حاسمة ، هي أنّ الفعّال لكلّ هذه العجائب هو الله تعالى وحده لا شريك له الّذى ينبغى أن يكون له وحده دون سواه الخلق والأمر . وحول الخلق والأمر تدور الآية الكريمة وكلّ آيات القسم .

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « جنن » ٩٨ .
(٢) معجم مقاييس اللّغة : « جنن » ٤٢٢/١ .

وبشأن عناصر الجنّات من النّبت يلفت نظرنا بقوّة جمال ترتيب العناصر بحيث ينجم عن ذلك النّسق البديع ما يشبه الموجة الواحدة المقيّدة فى ارتفاعها وانخفاضها بنظامٍ مقدّرٍ مضبوط ، أو ما يشبه الموجات المتتابعات المتناسقات طلوعًا ونزولاً ، صعودًا وهبوطًا . إنّ من يتابع بذهنه عناصر تلك الجنّات يشعر كما لو كان محلّقًا بطائرةٍ فوق أجوائها ، ويأخذ فى الارتفاع والانخفاض تباعًا ، وفق نظامٍ مقدّرٍ مضبوط . وكما بدأ محلّقًا صاعدًا ينتهى محلّقًا صاعدًا فمودّعًا .

وتفسير ذلك أنّ الجنّات تبدأ بالمعروشات أي المرفوعات على العروش جمع العرش. والعَرْش فى الأصل شيءٌ مسقّف ، يقال : عَرَشت الكَرْم وعرَّشته إذا جعلت له كهيئة سقف ، ويقال : اعترش العنب ركب عرشه[1] وعلا على العرش[2] وتعريش الكَرْم رفعه والتّوثّق منه . والعريش : بناءٌ من قُضبانٍ يُرْفَع ويوثّق حتّى يظلّل . وقيل للنّبيّ ﷺ يوم بدر : ألا نبنى لك عريشًا . وكلّ بناءٍ يُسْتَظَلُّ به عرشٌ وعريش . ويقال لسقف البيت عرش . قال الله تعالى : ﴿ فهي خاويةٌ على عروشها ﴾ . والمعنى أنّ السّقف يسقُط ثمّ يتهافت عليه الجُدرانُ ساقطة[3] .

وبعد هذه الموجة العالية الّتى تمثّلت فى الجنّات المعروشات ، ويأتى على رأس هذا النّوع من الجنّات العنب الذى يحبّه العرب حبًّا جمًّا لشرف العنب بين الزّروع من ناحية ، ولجمع العروش بين الجمال والجلال وكونها ظلالاً من ناحيةٍ أخرى ، تأتى الموجة المنخفضة هذه المرّة . قال تعالى : ﴿ وهو الّذى أنشأ جنّاتٍ معروشاتٍ وغير معروشات ﴾ ومن البيّن أنّنا بصدد جنّاتٍ من كلّ نوع ولسنا بصدد جنّةٍ واحدةٍ فقط من كلّ نوع .

والمراد بالجنّات غير المعروشات الزّروع الّتى تشبه الكروم فى الشّكل من حيث كبر الورقة والاستعداد للتّسلّق . والفرق بين الزّروع المعروشات وغير المعروشات

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « عرش » ٣٢٩

(٢) معجم مقاييس اللّغة : « عرش » ٤/٢٦٦ .

(٣) معجم مقاييس اللّغة : « عرش » ٤م٢٦٥ .

إمكان بقاء المعروشات مع الثّمار على العروش كالأعناب ، وعدم إمكان بقاء غير المعروشات مع الثّمار على العروش بسبب ثقلها كالبطّيخ والشّمّام والقرع ، وهذا النّوع ممّا لا ساق له من النّبات يطلق عليه اليقطين الّذى غلب على القرع . قال تعالى(١) : ﴿ وأنبتنا عليه شجرةً من يقطين ﴾ .

وبعد هذه الموجة الثّانية المنخفضة تأتى الموجة الثّالثة المرتفعة المتمثّلة هذه المرّة فى النّخلة وهي ضربٌ من الشّجر مشهورٌ بارتفاعه . وإذا كان العنب فى عرف العرب أشرف أنواع الزّروع فإنّ النّخل فى عرفهم اشرف أنواع الشّجر . ويبدو ذلك من الأصل اللّغويّ ﴿ نخل ﴾ النّون والخاء واللّام ، كلمةٌ تدلّ على انتقاء الشّيء واختياره . وانتخلته : استقصيته حتّى أخذت أفضله . وسمّي النّخل لأنّه أشرف كلّ شجرٍ ذى ساق ، الواحدة نخلة(٢) .

وبعد هذه الموجة الثّالثة المرتفعة تأتى الموجة الرّابعة المنخفضة المتمثّلة هذه المرّة فى الزّرع المختلف أكله : ﴿ والنّخل والزّرع مختلفًا أُكُلُه ﴾ والمراد بالأُكُل الثّمر . يقول: وخلق النّخل والزّرع مختلفًا ما يخرج منه ممّا يؤكل من الثّمر والحبّ(٣) والأُكل لما يؤكل بضمّ الكاف وسكونه(٤) .

وحينما ينصّ على أنّ الزّرع مختلفٌ أكله فذلك معناه أنّ ثمّة أنواعًا متعدّدة من الزّروع ممّا يعمّق معنى الجنّات . وحينما ينصّ على أكل الثّمرات والحبوب فذلك معناه تأكيد التّكريم من الله تعالى للإنسان الّذى سخّر الله سبحانه وتعالى له كلّ ما فى السّماوات وما فى الأرض .

وبعد هذه الموجة الرّابعة المنخفضة تأتى الموجة الخامسة المرتفعة المتمثّلة فى شجر الزّيتون والرّمّان الّذى يعبّر عنه مباشرةً بالثّمر ممّا يعمّق التّكريم من الله تعالى للإنسان: ﴿ والزّيتون والرّمّان متشابهًا وغير متشابه ﴾ واللّطيف فى هذه الموجة

---

(١) سورة الصّافّات ١٤٦ .
(٢) معجم مقاييس اللّغة : « نخل » ٥/٤٠٧ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٨/٣٩ .
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « أكل » ٢٠ .

الخامسة والأخيرة أنّها خلافًا للموجات السّابقات المفردات جاءت ثنائيّة التّركيب والوصف فثمّة الزّيتون والرّمّان . وثمّة التّشابه فى المنظر(١) والورق(٢) وثمّة عدم التّشابه فى شكل الثّمرة وحجمها ولونها وطعمها . إنّ الثّنائيّة فى تركيب الموجة وفى الوصف كأنّها توحى بانتهاء الموجات المتتابعات المرتفعات المنخفضات ، حتّى إذا كان الارتفاع الأخير كان التّتابع في التّركيب والوصف وفى ذلك إيذان بذهاب الموجة المتميّزة بعيدًا بعيدًا .

وحينما يأتى العنب على رأس الجنّات المعروشات وهو فاكهة ، والقرع على رأس الجنّات غير المعروشات وهو غذاء ، وثمر النّخل وهو غذاءٌ وفاكهة ، والحبّ على رأس الزّروع وهو قوام الغذاء الرّئيسيّ ، والزّيتون وهو غذاءٌ خالص ، والرّمّان وهو فاكهةٌ خالصة نكون بصدد جوهر الغذاء أمام كلّ أنواعه المختلفة الّتى يحتاجها الجسم ولا يستغنى عن أيٍّ منها . وهكذا يكون التّكامل شكلاً فى هيئة موجات أنواع النّبات ، ومضمونًا فى هيئة شمول كافّة أنواع الغذاء .

وبشأن القول : ﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقّه يوم حصاده ولا تسرفوا إنّه لا يحبّ المسرفين ﴾ . نستطيع أن نتبيّن أنّنا بصدد أربع جزئيّات كريمات . اثنتان تتعلّقان بعباد الله تعالى واثنتان تتعلّقان بالذّات العليّة . وإنّ من ألطف ما يجمل التّنويه به فضل الله تعالى على عباده فى تقديم ما يتعلّق بعباده وما فيه صلاحهم وفى تأخير ما هو حقٌّ للذّات العليّة ويخصّها . يتقدّم ما يخصّ العباد فى القول : ﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر ﴾ ويتأخّر ما هو حقٌّ للذّات العليّة فى القول : ﴿ وآتوا حقّه يوم حصاده ﴾ ويتقدّم ما يخصّ العباد فى القول : ﴿ ولا تسرفوا ﴾ ويتأخّر ما يخصّ الذّات العليّة فى القول : ﴿ إنّه لا يحبّ المسرفين ﴾ .

والحقيقة أنّا حينما ننظر إلى الجزئيّات الأربع من زاوية ما يخصّ العباد وما يخصّ الذّات العليّة ونربط بين الجزئيّتين اللّتين تخصّان العباد بالذّات : ﴿ كلوا من ثمره إذا

---

(١) تفسير الطّبريّ ٣٩/٨ .

(٢) الجلالين .

أثمر ﴾ ﴿ ولا تسرفوا ﴾ نستطيع بإذن الله تعالى أن ننتهي بشأن النّهي عن الإسراف في الأكل إلى ذات المعنى الّذى نتبيّنه فى قوله عزّ من قائل فى سورة الأعراف[1] : ﴿ يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كلّ مسجدٍ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنّه لا يحبّ المسرفين ﴾ وفى هذه الحال ينصرف النّهي عن الإسراف عن الاتّجاه إلى الصّدقة المفهومة ضمنًا من الأمر بإيتاء زكاة الثّمار على الفور إذا بلغت النّصاب فى القول : ﴿ وآتوا حقّه يوم حصاده ﴾ .

والحقيقة أنّ لدينا دليلاً آخر على تعلّق النّهي عن الإسراف بالأكْل فى المقام الأوّل هو أنّ القول : ﴿ وآتوا حقّه يوم حصاده ﴾ يتحدّث عن زكاة الثّمار وليس عن الصّدقة ، أي عن الرّكن الثّالث من أركان الإسلام ، والمعروف أنّ الزّكاة قد بيّن الشّارع الحكيم كُلّ دقائقها فى السّنة الثّانية من الهجرة فلا مجال فى حقّها لنقصٍ ولا زيادة ، لتقتيرٍ ولا إسراف ، بعكس الأكْل .

ومن البيّن وجه الشّبه بين القول هنا : ﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقّه يوم حصاده ﴾ وبين القول فى الآية الكريمة التّاسعة والتّسعين : ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾ والأمر بالأكل أمر إباحة ، وفيه التّنبيه إلى أنّ الإنسان هو المقصود الأوّل بهذه النّعم ، ولكن عليه ألاّ يسرف من ناحيةٍ فإنّ الله تعالى لا يحبّ المسرفين ، وعليه ألاّ ينسى حقّ الله تعالى من ناحيةٍ أخرى ، فإنّ نسيان حقّ الله تعالى هو الإسراف الحقيقيّ والتّقصير فى جنب الله تعالى. وليس الإسراف هو الإكثار من الصّدقة فقد تصدّق أبو بكرٍ الصّدّيق رضي الله عنه بكلّ ماله بحضرة المصطفى ﷺ . ثبت فى الحديث : يقول الله تعالى أنفق أنفق عليك . وفى الحديث أنّ ملكين يصبحان كلّ يوم يقول أحدهما : اللهمّ أعط ممسكًا تلفًا ويقول الآخر : اللهمّ أعط منفقًا خلفًا . وقال رسول الله ﷺ : أنفق بلالاً ولا تخش من ذى العرش

---

(١) الآية ٣١ .

إقلالاً[١] وروي التّرمذيّ[٢] أنّ رسول الله ﷺ قال : ثلاثةٌ أقسم عليهنّ وأحدّثكم حديثًا فاحفظوه ، قال : ما نقص مالُ عبدٍ من صدقة ... وعلّق التّرمذيّ على الحديث : قال أبو عيسى : هذا حديثٌ حسنٌ صحيح .

وإذا كانت الآية الكريمة تتحدّث فى الزّرع فإنّ الآية الكريمة التّالية تتحدّث فى الضّرع فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٤٢)

قال تعالى : ﴿ ومِنَ الأنعام حَمولةً وفرشا . كلوا ممّا رزقكم الله ولا تتّبعوا خطوات الشّيطان إنّه لكم عدوٌّ مبين ﴾ .

أنشأ الله سبحانه وتعالى وخلق جنّاتٍ وأنشأ من الأنعام حَمولةً وفرشًا[٣] والحمولة بفتح الحاء : ما يَحْمِل[٤] والفرش : بَسْط الثّياب ، ويقال للمفروش فَرْش وفِراش[٥] والمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى خلق الأنعام الّتى سوف يتمّ الحديث بالتفصيل عنها ، وجعل منها ما يُحْمَل عليه ويُتّخَذُ رَكوبًا كالإبل ، وما يتّخذ منها فَرْشًا وبساطًا ، أثاثًا ولباسًا . وفى هذا المعنى جاء قوله عزّ من قائل فى سورة النّحل[٦] : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكنًا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتًا تستخفّونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومِنْ أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثًا ومتاعًا إلى حين ﴾ إنّ الله سبحانه وتعالى مكّننا أن نتّخذ الألبسة والأكسية والبسط والخيام وما إلى ذلك من أصواف الغنم وأوبار الإبل وأشعار المَعْز . وإنّ التّعبير عن هذا

---

(١) تفسير ابن كثير ٥٤١/٣ . (٢) سنن التّرمذيّ ٤٨٧/٤ حديث رقم ٢٣٢٥ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٤٦/٨ وتفسير ابن كثير ١٨٢/٢ و١٨٣ .
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « حمل » ١٣٢
(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « فرش » ٣٧٥ . (٦) الآية ٤٠ .

الجانب من النّفع بالفرش ، لأنّ الفرش من أبرز مظاهر النّفع من الشّعر والوبر والصّوف .

ومن البيّن أنّ فى القول : ﴿ ومن الأنعام حمولةً وفَرْشًا ﴾ تنبيهًا إلى منفعتين كبيرتين للأنعام هما الحمل عليها ، والانتفاع من أصوافهاوأوبارها وأشعارها ، ويلحق بذلك جلودها ، فى اتّخاذ اللّباس والأثاث . ويلحق بهاتين المنفعتين منفعةٌ ثالثة تتعلّق بالأكل من لحومها ويلحق بذلك الشّرب من ألبانها ، وإلى هذه المنفعة أشار القول : ﴿ كلوا ممّا رزقكم الله ولا تتّبعوا خطوات الشّيطان . إنّه لكم عدوٌّ مبين ﴾ وإذا كان اللّبن فى مقدّمة ما يستفاد من الأنعام فى أثناء حياتها ، وهو يُشْرَب غالبًا، فإنّه بعد أن يعالج ويتحوّل جُبْنًا على سبيل المثال وقِشدة ، يؤكل . وهكذا يتبيّن أنّ جملة ﴿ كلوا ﴾ كما تشمل لحم الحيوان بعد ذبحه تشمل لبنه حينما يعالج ويصحّ أكله . ووراء ذلك يلحق شرب اللّبن بأكله .

وتبيّن الآية الكريمة أنّ الأكل من الأنعام الّتى يصحّ الأكل منها بعد ذبحها هو ممّا رزق الله سبحانه وتعالى من بين الحلال والطّيّب من الرّزق ، فله جلّ وعلا وحده لا شريك له الخلق والأمر ، وعلى عباد الله تعالى أن يطيعوه جلّ وعلا وأن يعصوا شياطين الإنس والجنّ ، ومنهم كفّار مكّة ومشركو العرب الّذين أضلّهم الشّيطان الرّجيم . وتأكيدًا للأمر باتّباع أوامر الله تعالى ونواهيه تنهى الآية الكريمة عن اتّباع خطوات الشّيطان الرّجيم البيّن العداوة لبنى آدم .

وإنّ مجىء لفظ : ﴿ خطوات ﴾ فى صيغة الجمع بالذّات ينبّه إلى أنّ المتّبع هو الّذى يُتْبع الخطوة الأولى بأخرى بعكس المتردّد مثلاً الّذى يقدّم رجلاً ويؤخّر أخرى، وينبّه إلى أنّ الشّيطان الرّجيم لا يرضيه إلاّ أن يخرج الإنسان بعيدًا عن الصّراط المستقيم كي تضلّ به السّبل ويتعذّر عليه — لا سمح الله — العودة إلى الصّراط المستقيم . وتفصّل الآيتان الكريمتان التّاليتان مجمل الأنعام وهاتان هما :